

الأداة النظرية للمركز الماركسي اللينيني للدراسات والأبحاث والتكوين

موضوعات حول المادية التاريخية

على محمود

(لعرو (لثالث

فبرلار ۲۰۱۸

يضع هذا الكراس بين يدي المناضلين والمناضلات والقراء عموما، مجموعة من الموضوعات ذات صلة بالمادية التاريخية، السلاح الثاني في يد الكادحين والبروليتاريين بعد المادية الجدلية. بإنجازه هذا، فإن الكراس لا يستنفذ كل موضوعات المادية التاريخية بل يتطرق إلى أهمها، ويترك الباب مفتوحا للمناضلين والمناضلات للتغذي بالمزيد من الأفكار والموضوعات الأخرى، التي يزدهر بها حقل الفكر المادي التاريخي الماركسي - اللينيني.

"فليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم، بل، على العكس، إن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم". كارل ماركس: مقدمة "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي"

"في القصور يفكرون غير ما يفكرون في الأكواخ" فردريك انجلز: "لويدفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية"

علي محمود

### العلقة 1

# الموضوعة الأولى:

## في التعريف العام للمادية التاريخية

ساهم المعلمان البروليتاريان العظيمان كارل ماركس (1818 – 1883) وفردريك انجلز (1820 – 1895) في تزويد البروليتاريا الثورية بسلاحين حادين وحاسمين في نضالها الثوري من أجل المجتمع الاشتراكي والشيوعي، وهذان السلاحان هما المادية الجدلية والمادية التاريخية.

إن المادية التاريخية جزء لا يتجزأ من الفلسفة الماركسية، وهي في نفس الوقت تشكل قاعدة علمية لسياسة المنظمات والأحزاب الماركسية اللينينية التي تعرف، حسب لينين، كيف تجمع بين الشغف القوي في النضال الثوري الكبير، والدراسة الأكثر وضوحا، المنجزة بدم بارد للظرف الموضوعي.

وتهدف المادية التاريخية إلى دراسة بنية المجتمع الإنساني والقوانين التي تحكم تطوره. وبفضل المادية التاريخية أصبح بالإمكان القيام بمقاربة علمية لتطور المجتمع الإنساني، باعتباره

سيرورة طبيعية وتاريخية رغم طابعها المعقد المتعدد الأشكال، تخضع لقوانين عامة، وذلك من طرف الفكر العلمي.

إن معرفة هذه القوانين تسمح بتحديد علمي لمعنى اتجاه تطور المجتمع، ولذلك قيمة كبرى لمن يريد أن يفهم الواقع الاجتماعي، من أجل المساهمة في تغييره ثوريا.

### الموضوعة الثانية:

## ماركس وانجلز والثورة العلمية في مجال التاريخ

قبل مجيء كارل ماركس وفردريك انجلز كانت المثالية هي السائدة بشكل كبير في حقل التاريخ، بل كان الفلاسفة الماديون أيضا (ماديو القرن 18 مثلا) ينظرون إلى التطور الاجتماعي باعتباره نتيجة للتغير في المفاهيم والأفكار الاجتماعية، ولذلك كانت ماديتهم ليست إلا نصف مادية لا تتجاوز حدود النظرة إلى الطبيعة، ولم يطبقوا تلك المادية على مجال الحياة الاجتماعية، الشيء الذي تحقق بفضل كارل ماركس وفردريك انجلز، ونتذكر جميعا قولة ماركس الشهيرة:

#### "فليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم، بل، على العكس، إن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم".

يجد الفلاسفة والمؤرخون صعوبات كبيرة في محاولاتهم لتفسير الظواهر الاجتماعية، ويعود ذلك إلى مجموعة من الأسباب، أهمها كون الحياة الاجتماعية هي نتاج الأنشطة الإنسانية، خلافا للحياة الطبيعية، بمعنى أن الناس يعملون بشكل واعي، فعن طريق الإرادة والذكاء يتابعون في نشاطهم أهدافا محددة، وفي مجهوداتهم لفهم الطبيعة، يصطدم الناس بواقع الأشياء والظواهر، التي توجد مستقلة عن وعيهم، بينما يصبح تفسير ظواهر الحياة الاجتماعية أكثر تعقيدا، ذلك أن أول ما يفقأ العين هو أن الحياة الاجتماعية من صنع الناس، مما يخلق الوهم لديهم بان العلاقات الاجتماعية قائمة طبقا لوعيهم، ومن تم محددة بالكامل بطموحاتهم وبالأهداف التي يتابعون في نشاطهم.

في مقالة لينين الشهيرة "كارل ماركس" يحدد لينين العيبين الأساسيين للمفاهيم القديمة حول التاريخ التي تمنع من فهم التطور الاجتماعي، كسيرورة تخضع لقوانين محددة، وهذان العيبان هما:

- العيب الأول: يتمثل في النظر إلى النشاط التاريخي للإنسانية عبر الأسباب الإيديولوجية بدون تحليل أسبابها، وبالتالي عدم فهم أن

تطور نظام العلاقات الاجتماعية يخضع لقوانين موضوعية، ولذلك وجب البحث عن جدور هذه العلاقات في مستوى تطور الإنتاج المادي.

- العيب الثاني : يتمثل في تجاهل الجماهير الشعبية واعتبار التاريخ كعمل لهذه الشخصية أو تلك من الشخصيات التي تسمى كبيرة.

إن مثل هذه التصورات للتاريخ لا تأخذ بعين الاعتبار إلا الأسباب الأكثر مباشرة والأكثر ظاهرية، دون القدرة على تحليل الأسباب الأكثر عمقا التي تتولد عنها، وبناء عليه، كان المؤرخون المثاليون يعتقدون أنه لتفسير الأحداث التاريخية يكفي توضيح الأفكار التي تلهم المشاركين المباشرين في تلك الأحداث، والأهداف التي يعملون من أجلها. لكن بعد حل هذه الإشكاليات ينطرح سؤال تخر: لماذا هؤلاء المشاركون اختاروا هذه الأهداف دون غيرها؟ ما هي الأسباب في ذلك؟

بطبيعة الحال يظل هذين السؤالين عند المثاليين دون جواب. وبخلاف ذلك لا تتوقف المادية عند حدود تفسير الدوافع الإيديولوجية لتصرف الناس، بل تقوم بتحديد الأسباب المادية. فوفق التصور المادي للتاريخ، فإن الوجود الاجتماعي هو المعطى الأول، بينما الوعي الاجتماعي أو الحياة الفكرية للمجتمع ليست

إلا معطى ثاني، الشيء الذي لا يعني أن المادية التاريخية تتجاهل الدور الهائل للأفكار في التطور الاجتماعي، لكنها تنظر إلى تلك الأفكار باعتبارها انعكاسا لظروف الحياة المادية الاجتماعية.

بإعطائهم للأفكار والتصورات دورا حاسما في تطور التاريخ الإنساني، يتوصل المثاليون إلى نتيجة مفادها أن أصحاب هاته الأفكار (عظماء الرجال، الإيديولوجيون، السياسيون، المشرعون ...) هم من يصنع التاريخ. إن هذا التصور في جوهره لا يعطي أية قيمة للقوى المبدعة والخلاقة للشعب، ويسقط حتما في إنكار قوانين التطور التاريخي، فالتاريخ بهذا المنظور لا يشكل إلا تراكما لوقائع ولدت صدفة وترتبط بالمسارات أو الخصوصيات الفردية لعظماء الرجال.

إن المذاهب المثالية تبرر وتكرس اضطهاد الجماهير في المجتمعات القائمة على الاستغلال، وتعكس في نفس الوقت الخوف من الطاقة الخلاقة للشعب لدى منظري وإيديولوجي ومؤرخي الطبقات المستغلة، بينما تكشف المادية التاريخية عن الدور الهائل الذي يلعبه الشعب في التاريخ، فالجماهير، أي أولئك الذين يخلقون كل ثروات المجتمع بأيديهم ويضمنون إنتاج الخيرات المادية، إن هؤلاء هم العامل الحاسم في التطور التاريخي.

إن قول المادية التاريخية بهذا، لا يجعل الماركسية ـ اللينينية تنكر دور الأفراد والقادة في التاريخ، لكنها تنطلق من أن هذا الدور لا يمكن فهمه بدون فهم قوانين التاريخ، بدون دراسة معمقة لظروف حياة الشعوب والطبقات، مما يظهر ويبرر وجود أفراد يلعبون أدورا مهمة في السيرورة التاريخية.

#### فكيف نشأت المادية التاريخية؟

لم تظهر المادية التاريخية إلا عندما تهيأت المقدمات الاجتماعية والنظرية والتاريخية لذلك، ويتمثل ذلك في:

- ظهور المذاهب الاجتماعية وبالأخص الاقتصادية الفرنسية والانجليزية في النصف الثاني من القرن 18 وبداية القرن 19، ونظريات المؤرخين الفرنسيين في النصف الأول من القرن 19، وقد أثارت هذه الأعمال الكثير من الأسئلة الهامة شكل حلها مقدمة للفهم العلمي للحركة الاجتماعية.
- لتظهر المادية التاريخية كان لابد كذلك ان تتجمع بعض الظروف التاريخية الموضوعية، أي أن العلاقات الاجتماعية تكون قد وصلت درجة من النضج، وكمثال على ذلك، فقد تم اكتشاف قانون الصراع الطبقي الذي بدونه لا نستطيع فهم تطور مجتمع طبقي.

فقبل ماركس فقد كان هناك اعتراف بوجود مجتمع مقسم إلى طبقات، لكن دون استطاعة الكشف عن حقيقة هذا التقسيم وأسبابه. ففي قلب التشكيلات ما قبل الرأسمالية كان التقسيم معقدا وتراتبيا بشكل كبير يضم الهيئات والطوائف ("كاسط" = (caste) والمهن، مما كان يمنع من فهم واضح لهذه الظاهرة، لكن التطور الاجتماعي جعل العلاقات الطبقية تصبح بسيطة، وظهر بوضوح للعيان، مع المرور إلى الرأسمالية، تبعية البنية الطبقية للمجتمع والعلاقات الاقتصادية، هنا فقط، كما سجل ذلك انجلز اللغز قد تم حله".

لقد كشف المؤرخون الفرنسيون في مرحلة عودة الملكية ( La المجتمع المدني، أن وجود الطبقات مرتبط بظروف حياة المجتمع المدني، أي العلاقات الاقتصادية وعلاقات الملكية، لكنهم كانوا عاجزين عن تقديم تفسير علمي لأصل الطبقات، بسبب ضيق أفقهم وفكرهم البورجوازي، وبعدما قدموا تفسيرا منطقيا لتاريخ الثورات البورجوازية الفرنسية والانجليزية، الذي أرجعوه إلى نضال "الهيئة الثالثة" (Le tiers-état) خاصة البورجوازية ضد نبلاء الأرض الإقطاعيين، ولما ظهرت البروليتاريا كقوة مستقلة على مسرح التاريخ تراجع مؤرخو البورجوازية عن فكرة الصراع الطبقي.

هكذا، ولاستخلاص النتائج الضرورية من وجود الطبقات واكتشاف قانون صراعها، كان لابد من الوقوف على أرضية طبقية جديدة، وهذه الأرضية تمثلها البروليتاريا كطبقة اجتماعية.

إن العائق الطبقي المشار إليه أعلاه يبرز إلى أي حد كيف أن اكتشاف قوانين التطور الاجتماعي يتم بشكل متأخر عن القوانين الطبيعية، فالطبقات الحاكمة التي كانت تحتكر كل الأنشطة الفكرية كانت لديها مصلحة في تطوير العلوم الطبيعية، التي تخدم بشكل مباشر الإنتاج المادي. وبالمقابل لم تكن هناك نفس المصلحة لفهم الطبيعة العميقة للحياة الاجتماعية، بل كانت تعمل على إخفاء أسباب الظروف السيئة، التي كانت تعيشها الطبقة العاملة، بينما كانت الطبقات الكادحة قابعة في جهل مطبق وغير قادرة عن البحث عن معرفة الظروف التي تسمح لها بالتحرر.

إن البروليتاريا هي أول طبقة ظهرت على مسرح التاريخ مهتمة بالقضاء على كل أشكال الاضطهاد الطبقي، أي طبقة مهتمة بالمعرفة الموضوعية والدقيقة للاتجاهات التطور الاجتماعي، فبالنسبة للبروليتاريا فمعرفة قوانين التطور الاجتماعي أصبحت ضرورة موضوعية، لأنها وحدها تجعل من الممكن التغيير الثوري للمجتمع الرأسمالي، والانتقال إلى مجتمع اشتراكي يسير نحو الشيوعية.

إن اكتشاف قوانين التطور الاجتماعي ساهم في انتقال الاشتراكية من اشتراكية طوباوية إلى علم. وهنا انتصبت قامتان عظيمتان ثوريتان وهما كارل ماركس وفردريك انجلز اللذان بلورا المفهوم او التصور المادي للتاريخ، وأبانا على أن المجتمع، كما الطبيعة يتبع تطورا دياليكتيكيا غير منقطع هكذا بينا لأول مرة أن الاشتراكية ليست فكرة طوباوية، بل ضرورة تاريخية ستحقق على يد البروليتاريا وحلفائها.

هكذا فالقاعدة النظرية للاشتراكية العلمية عند ماركس وانجلز مشكلة فلسفيا، والفلسفة التي تقوم عليها هي المادية التاريخية بالإضافة إلى المذهب الاقتصادي.

وفي معرض حديثه عن عبقرية ماركس في هذا المجال يقول لينين:

" ... غير أن الثورات العاصفة التي رافقت سقوط الإقطاعية، القنانة، في كل مكان في أوروبا وخاصة في فرنسا، بينت بوضوح متزايد على الدوام أن الصراع الطبقي هو اساس كل التطور وقوته المحركة. فما من حرية سياسية تم انتزاعها من طبقة الإقطاعيين دون مقاومة يائسة. وما من بلد رأسمالي قام على اساس حر، ديموقراطي، إلى هذا الحد أو ذاك، دون نضال حتى الموت بين مختلف طبقات المجتمع الرأسمالي.

ومن عبقرية ماركس، أنه كان أول من استخلص هذا الاستنتاج الذي ينطوي عليه التاريخ العالمي، وطبقه بصفة منسجمة إلى النهاية. وهذا الاستنتاج هو مذهب الصراع الطبقي ".

ولإبراز الأهمية الثورية لما استخلصه ماركس، وطبقه بشكل منسجم إلى النهاية، كتب لنيين ايضا يقول: (وهذا يجب أن ينقش في ذاكرة كل مناضل ومناضلة)

" لقد كان الناس وسيظلون أبدا في حقل السياسة، سذجا يخدعهم الآخرون ويخدعون أنفسهم، ما لم يتعلموا استشفاف مصالح هذه الطبقات أو تلك، وراء التعابير والبيانات والوعود الأخلاقية والدينية والسياسية والاجتماعية، فغن أنصار الإصلاحات والتحسينات سيكونون أبدا عرضة لخداع المدافعين عن الأوضاع القديمة، طالما لم يدركوا أن قوى هذه الطبقة السائدة أو تلك تدعم كل مؤسسة قديمة، مهما ظهر فيها من بربرية واهتراء . فلكي نسحق مقاومة هذه الطبقات، ليس ثمة سوى وسيلة واحدة، هي أن نجد في نفس المجتمع الذي يحيط بنا القوى التي تستطيع - وينبغي عليها بحكم وضعها الاجتماعي – أن تغدو القوة القادرة على تكنيس القديم وخلق الجديد، ثم أن نشخص هذه القوى وننظمها للنضال ". "مصادر الماركسية الثلاثة وأقسامها المكونة الثلاثة"، لينين.

#### الموضوعة الثالثة:

# كيف نشأت المادية التاريخية عند ماركس وانجلز؟

#### - في جدور النظرة المثالية للتاريخ:

قبل مجيء كارل ماركس وفردريك انجلز سادت حقل التاريخ النظرة المثالية لآلاف السنين، وقد شكل التصور الديني للتاريخ الجدر المعرفي الأول لنشأة المثالية التاريخية.

قبل الدين الاجتماعي، عرف الإنسان الأول ما يطلق عليه الدين الطبيعي (الإحيائية، الأرواحية)، فأمام العجز عن فهم الظواهر الطبيعية أعطى الإنسان لعناصر الطبيعة روحا وإرادة حيث كان يحاول إرضاءها تلافيا لغضبها وعقابها.

من هذه النظرة البدائية نشأ المفهوم الديني للتاريخ الذي يرى في تاريخ الإنسان تمظهرا لإرادة إله أو مجموعة من الآلهة، فالمسيحية مثلا، من خلال فكر منظرها الكبير سان أغوسطين (القرن الخامس الميلادي) فالله يتحكم في قدر الإنسان، فالحروب والمجاعات والامبراطوريات التي تتشكل أو تنهار، كل هذا يتحكم فيه القدر (لابروفيدانس = La providence). عند

المسيحي فإن تاريخ الإنسان ليس له إلا هدف واحد: ضمان سيطرة الديانة المسيحية وتحقيق مجد الله على الأرض.

ضمن هذا المنظور ليس الإنسان سوى شيئا في يد قوى ما فوق الطبيعة، وأن الذات التاريخية ليست إلا الإله، فهو في نفس الوقت الممثل والمخرج للتاريخ.

وقد نشأت النظرة المثالية للتاريخ على نفس الأرضية مع تحوير للذات التاريخية، التي لم تعد الإله ولكن أفكار الناس كما هو الحال مثلا عند فولتير وفلاسفة الأنوار، بل حتى لدى بعض الفلاسفة الماديين أمثال هولباخ وهيلفيسيوس، وغيرهم ممن كانوا يرون أن الأفكار هي التي تصنع التاريخ. ويشكل التصور الغائي للتاريخ إحدى الأشكال الخاصة للمثالية التاريخية.

#### - التصور الغائي أو منظور هيجل للتاريخ:

عند هيجل فإن الواقع الملموس ليس إلا انعكاسا لفكر الإنسان، يطلق عليه هيجل اسم "الفكرة" أو "الروح"، أو ما يسميه أيضا "العقل الكوني"، الذي يعني به هيجل التعبير بلا جسد عن الفكرة والعقل الإنساني. ضمن هذا التصور للتاريخ، فالأصل في العلاقة بين الروح أو العقل هو الانفصال، لكن خلال مسار التاريخ وبشكل خطي وتدريجي، نقف عند مسار تتحقق فيه أكثر فأكثر الوحدة بين الفكر الفاعل والواقع. إن هذا التطور التاريخي يعود

إلى تطور العقل، فذات التاريخ عند هيجل هي ذات متعالية، فالروح أو العقل يعي بشكل تدريجي جوهره ووجوده.

عند هيجل فإن نوع الحرية الذي يسود في كل مرحلة تاريخية، هو الذي يبين لنا حالة التقدم التي يعرفها تطور العقل، وفي منظور هيجل فهذا التصور للحرية يختزل في تحرر العقل الإنساني ولا يعني التحرر الملموس للإنسان.

إن التاريخ وتطوره الذي يسيطر فيه العقل له غاية هي: تجسيد العقل فيما يسمح بحرية الجميع، فالتاريخ إذن له معنى منطقيا ومصيرا محددا: التحقيق الكامل والشامل للعقل عبر تعايشه التام مع الواقع، الملموس. وعند هيجل تتحقق هذه الغاية مع الدولة البورجوازية بالشكل الذي تطورت به في عصره، وعلى هذا الأساس، رأى هيجل أن تاريخ الإنسانية كان يسير في اتجاهه نحو هذا الهدف الوحيد الذي لا يمكن تلافيه.

خلاصة القول فإن هيجل بتصوره للتاريخ يعطي لهذا الأخير غاية وهدفا محددا لا مناص منه، وهذه النظرة تسمى التصور الغائي للتاريخ، وإن دحض هذا المفهوم المثالي للتاريخ سيقع على عاتق اسمان كبيران هما فيورياخ أولا ثم كارل ماركس ثانيا.

- نحو اكتشاف نظرية المادية التاريخية:

إن استعمال مصطلح المادية التاريخية يعود إلى سنة 1892، وكان فردريك انجلز أول من استعمله وقام بليخانوف بتعميمه بعده، إلا أن اكتشاف المادية التاريخية قد حصل في منتصف أربعينيات القرن 19 (1844 – 1846)، كنتاج لبلورة نظرية انطلاقا من مواد فلسفية (الدياليكتيك الهيجلي ومادية فيورباخ)، وبارتباط مع الصراعات الطبقية التي عرفتها تلك الفترة من حياة كارل ماركس وفردريك انجلز الفكرية والنضالية، فعبر نقد الدين والفلسفة والسياسة (الدولة) اكتشف مؤسسا الماركسية أهمية الظواهر الاقتصادية في فهم المجتمعات الإنسانية.

إن النقد الديني، من خلال استيعاب نقد فيورباخ للدين الذي أطاح بإمبراطورية هيجل المثالية لما أظهر فيورباخ طبيعة الدين باعتباره نتاجا للإنسان الذي بنى لنفسه صورة مثالية كاملة عبر خلقه لإله واحد أحد.

إن هذا الإسهام قد أبان لماركس حقيقة الطرح الهيجلي، الذي لم يكن سوى تفسيرا مجردا للإنسان يعتمد على الدين، من حيث أن حقيقة المثالية الهيجلية الملخصة في مفهوم "الفكرة المطلقة" الخالقة للكون لم تكن سوى انعكاسا محرفا لفكرة الإله المسيحية، وذلك عبر غطاء فلسفي، من هنا انطلق النقد الماركسي لفلسفة هيجل (لقد كانت فلسفة هيجل آنذاك هي المسيطرة)، ولكل المفاهيم المجردة عن الإنسان والمجتمع.

اعتبر هيجل أن الدولة هي تجسيد للعقل، لذلك سينتقل ماركس وانجلز إلى نقد الدولة، وفي سياق هذا النقد سيكتشفان الأسس التي تقوم عليها الدولة البورجوازية، وينطبق ذلك على كل أشكال الدولة، تلك الأسس التي لا يجب البحث عنها في ذاتها، بل في المجتمع المدني الذي يعبر عن علاقات قوى محددة داخله، ومن تم طرح ماركس وانجلز سؤال لماذا علاقات القوى هاته بين مختلف الطبقات الاجتماعية؟

إن هذا السؤال سيقودهما إلى ضرورة دراسة الطريقة التي يتنظم عليها الناس، من أجل ضمان عيشهم، أي الإنتاج، فوجد ماركس وانجلز نفسهما أمام ضرورة دراسة الاقتصاد السياسي.

إن نقد هيجل لم يكن خاتمة النقد الفلسفي لماركس وانجلز، بل وجه سهام نقدهما كذلك نحو فيورباخ، حيث أظهر هذا النقد محدودية مادية فيورباخ، التي لم تستطع تجاوز حدود مادية القرن 18، فالإنسان عند فيورباخ ليس سوى "شيء حسي"، مما جعل هذا الأخير يغفل جانب "النشاط الحسي" عند الإنسان، فالواقع مشكل من مواجهة بين النظرية والواقع، بين الفكر والواقع، فهذا الإنسان "الحسي" سيتم اعتباره خارج أي تاريخ. بالنسبة لفيورباخ فالمادية والتاريخ منفصلان بشكل كامل، ويظل الإنسان كائنا مجردا لا تاريخيا.

هكذا، فقد انتقل كل من ماركس وانجلز من نقد مثالية هيجل ومادية فيورباخ التأملية، إلى تطوير تصور جديد للتاريخ (المادية التاريخية) مبرزين أهمية ومكانة الإنتاج المادي والاقتصاد في فهم المجتمعات وتطورها التاريخي.

#### - كيف عبر ماركس وانجلز عن اكتشافهما ؟ :

لقد قام كارل ماركس وفردريك انجلز بعملية قلب للنظرية المثالية الهيجلية. يقول كارل ماركس:

"فليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم، بل، على العكس، إن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم". والمقصود عموما بالوجود الاجتماعي هو الظروف المعاشية المادية.

وفي قولة أخرى مشهورة "لا يجب شرح حياة الناس بأفكارهم، ويجب شرح أفكار الناس بحياتهم".

ويلخص ماركس اكتشافه العلمي الكبير كما يلي: يقول ماركس في مقدمة كتابه "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي":

"...لا تستطيع العلاقات القانونية والاشكال السياسية للدولة أن تفسر نفسها بنفسها، ولا عن طريق ما يدعى التطور العام للعقل البشري، إن أساسها بالعكس هو في ظروف الحياة المادية، التي يطلق عليها هيجل، وهو يحذو حذو الانجليز والفرنسيين في القرن

#### العلقة 2

الثامن عشر، اسما من نوع خاص هو" المجتمع المدني"، ويجب أن نبحث في الاقتصاد السياسي عن تشريح المجتمع المدني".

### الموضوعة الرابعة: في العلاقة بين المادية التاريخية والمادية الديالكتيكية

18 كاربى 2017

إن الماركسية نظرية ومفهوم منسجم ومنطقي للعالم، وتضم المادية الجدلية والمادية التاريخية، والمذهب الاقتصادي الماركسي ونظرية الاشتراكية العلمية. وقد تعرضت هذه النظرية الثورية للبروليتاريا، وعبر أزمنة مختلفة، لمحاولات عديدة من طرف كل التيارات التحريفية والتحريفية الجديدة، لضرب وحدة تلك المكونات التي تتشكل منها النظرية الماركسية.

لقد أعلن تحريفيو الأممية الثانية أن الماركسية ليست لها فلسفة، ومن تم بنوا على ذلك الفكرة التي لا زال يسير عليها حفدتهم من التحريفيين الجدد، القائلة بأن المذهب الاقتصادي لماركس ونظرية الاشتراكية العلمية بإمكانها أن تتكيف مع اي فلسفة.

ويعتبر كارل كاوتسكي (1854 ـ 1938) مؤسس نظرية الماركسية كمنهج لا علاقة له بالفلسفة، الذي ينهل منه الآن كل التحريفيين. في كتابه "المفهوم المادي للتاريخ"، يقول كاوتسكي "أن في نظر

ماركس وانجلز ليس مهما أن نقبض الحقيقة، بل الأهم أن نجد الطريق المؤدي إليها، أي المنهج".

هكذا بعدما تم فصل المنهج عن المفهوم للعالم (المنهج جزء لا يتجزأ منه)، يقول كاوتسكي:

"إن المفهوم المادي للتاريخ ليس مرتبطا بالفلسفة المادية، يمكن مزاوجته بأي فلسفة تتأقلم مع المنهج المادي الجدلي، أو على الأقل، ليست في تناقض لا يتوافق مع هذه الأخيرة. ليس مهما أن تتباها هذه الفلسفة بكونها مادية، أو تعارض المادية الميكانيكية، أو أن تفضل تسمية نفسها بالواقعية، أو الواحدية، وضعية أو حسوية، تجريبية أو نقدية تجريبية".

فحسب كاوتسكي يمكن للمفهوم المادي للتاريخ أن يرتبط، ليس فقط بوجهات نظر ماخ (6191 ـ 1938) وأفيناريوس (1843-1896)، بل كذلك بوجهات نظر فلاسفة آخرين.

على قاعدة هذا الطرح الكاوتسكي، استبدل التحريفيون الكانطيون الجدد، الاشتراكية العلمية بما أسموه "الاشتراكية الأخلاقية"، بالمعنى، الذي تصبح فيه الاشتراكية غير ذات أساس علمي. وقد حصل هذا في نفس الوقت الذي كان فيه أنصار ماخ يعبدون الطريق لتوحيد الاشتراكية مع الدين.

وفي معرض رد لينين في صراعه ضد التحريفية على الواجهة الفلسفية، أكد هذا الأخير على وحدة المادية الجدلية والمادية التاريخية، باعتبارهما غير منفصلان عن بعضهما البعض (أي أنهما كل لا يتجزأ). (انظر في هذا الجانب كتاب لينين الشهير "المادية والمذهب النقدي التجريبي").

وبطبيعة الحال فالسؤال الذي يطرح هو:

# أين يقوم الارتباط الداخلي غير القابل للانفصال بين المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية؟

1) إن المادية التاريخية هي حصيلة تطبيق المادية الجدلية في دراسة الحياة الاجتماعية، مما يعني:

- أنها تقف بالضرورة على نفس القاعدة الفلسفية، أي المفهوم المادي للعالم.
- يعود الفضل للمادية التاريخية في جعل هذا المفهوم ذا طابع مكتمل ومنسجم. فبعد نشوء المادية التاريخية أصبح بإمكان المادية الفلسفية أن تقدم شرحا علميا، ليس فقط لظواهر الطبيعة بل كذلك لظواهر الحياة الاجتماعية، وعلى هذا الأساس فالمادية التاريخية جزء لا يتجزأ من الفلسفة الماركسية، بدونها لا

يمكن الحديث عن المفهوم المادي الماركسي ـ اللينيني للعالم. فالمادية التاريخية حلت المسألة الأساسية للفلسفة بالنسبة للمجتمع، هي علاقة الوعي والكائن (أو المادة والفكر)، وفي المجتمع علاقة الوجود الاجتماعي والوعي الاجتماعي.

2) تحتل مسألة العلاقة بين الوعى الاجتماعي والوجود الاجتماعي في المادية التاريخية نفس العلاقة التي تحتله العلاقة بين الكائن والوعى في المادية الجدلية، فكما الحال في الطبيعة نلاحظ وجود مجموعتين من الظواهر داخل المجتمع : الظواهر المادية والظواهر الفكرية، من جهة توجد الحياة المادية للمجتمع (الناس ينتجون الخيرات المادية الضرورية لحياتهم: الغذاء، اللباس، بناء المساكن و وسائل النقل ... )، وفي سيرورة الإنتاج تنبني بين الناس علاقات اقتصادية تضم الإنتاج والتبادل وتوزيع المنتوجات، وبشكل موازي تنبني كذلك علاقات على أساس الحاجة إلى إعادة إنتاج النوع البشري، حيث تأخذ السيرورة البيولوجية أشكالا اجتماعية متنوعة. بكلمة أخرى، يعيش الناس، ويعيدون إنتاج نوعهم، ينتجون ويتبادلون المواد الضرورية لحياتهم. وتشكل مجموع هذه الأنشطة الحياة المادية للمجتمع، أو ما نطلق عليه الوجود الاجتماعي.

ومن جهة أخرى هناك مظهر آخر للحياة الاجتماعية، وهو الحياة الفكرية أو الوعي الاجتماعي (الأفكار الاجتماعية، الآراء والعواطف المعبر عنها في أشكال مختلفة من الوعي الاجتماعي، المؤسسات السياسية والقانونية، المبادئ الأخلاقية، الاختيارات الجمالية، الإبداع الفني، المعتقدات الدينية، المذاهب الفلسفية ...). لتقديم تفسير علمي للتطور الاجتماعي يلزمنا الجواب على السؤال التالي:

#### أيهما من الظاهرتين السابقتين هو الأول أو الأسبق؟ هل الظواهر المادية أم الفكرية؟

إنها المسألة الأساسية في علم الاجتماع، والأجوبة عنها تؤدي إما إلى تبني التصورات المادية أو المثالية للتاريخ. والجواب عن هذا السؤال يبرز إلى أي مدى هناك وحدة بين المادية الجدلية والمادية التاريخية. فالأولى تقر بأن الكائن الموضوعي والواقعي غير مرتبط في وجوده بالوعي (أي مستقل عنه)، والثانية تقر بأن الكائن الاجتماعي كواقع موضوعي مستقل عن الوعي الاجتماعي. وفي كلا الحالتين معا، فالوعي وكذلك الوعي الاجتماعي يعتبران انعكاسا للواقع الموضوعي.

وفي مجال الحياة الاجتماعية ينطرح السؤال التالي:

هل يمكن أن يوجد في المجتمع علاقات مستقلة عن الوعي الاجتماعي، علاقات، بدل أن تكون محددة بالوعي الاجتماعي، تكون هي التي تحدده على النقيض من ذلك؟

إن المادية التاريخية تجيب بنعم، ذلك أن مبادئ المادية الفلسفية قد تم تعميمها على دراسة المجتمع الإنساني، ولكن باعتباره ميدانا خاصا للعالم المادي. إن الأطروحات الأساسية للمادية التاريخية هي تطوير وتجسيد للأطروحات المادية الديالكتيكية مطبقة على دراسة الحياة الاجتماعية، إنهما مرتبطتان بشكل لا انفصام فيه، ويكمن سبب تطورهما في الحاجيات العملية للنضال الثوري لدى ماركس وانجلز، تلك الحاجيات التي جعلتهما يكتشفان ضعف المثالية الهيجلية وتناقضاتها، من قبيل عدم التوافق بين المفهوم المثالي للدولة باعتبارها تعبيرا عن العقل الكوني، و وقائع الحياة الاجتماعية التي تهيمن عليها الصراعات الطبقية وتصادم المصالح المادية المتعارضة. من هذا المنطلق شكل تحليل المشاكل الاجتماعية دورا حاسما في بلورة ماركس لتصور جديد للعالم، فالانتقال

التدريجي لماركس من المثالية إلى المادية، ومن موقف الديموقراطية الثورية إلى الإيديولوجية الشيوعية، انبثق لأول مرة في مقالاته في "الحوليات الفرنسية ـ الألمانية"، ووجد تتويجه في مؤلفات كتبها بالاشتراك مع انجلز، من قبيل "العائلة المقدسة" و"الإيديولوجية الألمانية"، حيث تبلورت أولى الأطروحات والمبادئ الأساسية للمادية الديالكتيكية والمادية التاريخية.

إن المادية التاريخية مستحيلة بدون المادية الديالكتيكية والعكس صحيح.

ولم تكتمل المادية الفلسفية كبناء يقدم تحديدا كاملا وعاما لكل ظواهر العالم إلا في اللحظة التي تم فيها تطبيق المبادئ المادية على دراسة المجتمع، وبلغة أخرى، فليس إلا مع بلورة ماركس وانجلز للمادية التاريخية، قد بلغ بناء المادية الفلسفية اكتماله، وبذلك انبنى مفهوم للعالم مادي منسجم، فمثلا لم يفهم دور الممارسة فهما علميا إلا بعد فهم أهمية النشاط الاجتماعي والتاريخي للناس، ودور ذلك في التقدم من أجل المعرفة، وهذا كله على قاعدة المادية التاريخية.

(العلقة 3

الموضوعة الخامسة:

## نمط الإنتاج كقوة محددة للتطور الاجتماعي

إن المسلمة الأولى التي تنطلق منها المادية التاريخية، هي أن التقدم الاجتماعي يحدده في آخر المطاف تطور الإنتاج، وتلك هي إحدى القوانين الرئيسية للتطور الاجتماعي، فإنتاج الخيرات المادية الضرورية لحياة الإنسان (الغذاء، اللباس، السكن ...) هو الشرط الذي لا مناص منه لوجود كل مجتمع.

→ هذه المسلمة يؤكدها تاريخ المجتمعات البشرية.

#### أصول المجتمع الإنساني وتاريخ الإنتاج الاجتماعي

لقد بين العلم بشكل غير قابل للدحض الأصل البيولوجي الطبيعي للإنسان. لقد ظهر هذا الأخير خلال سيرورة التطور الحيواني، في بداية الزمن الرابع. إن الإنسان الأول ينحدر من فصيلة قرود انقرضت اليوم، ففي نهاية الزمن الثالث كانت توجد فصائل متعددة من "أنتروبويد"، منهم من سيصبح أسلافا للإنسان،

إن المادية الديالكتيكية قد كشفت معنى البراكسيس كأساس وهدف للمعرفة ومعيار الحقيقة، تلك المعرفة التي لم يحصرها ماركس في المختبرات، كما فعل فرنسيس باكون الفيلسوف الانجليزي، بل جعلها تضم مجموع النشاط الاجتماعي والتاريخي للناس، ذلك النشاط الهادف إلى تغيير الطبيعة والمجتمع.

إن الفلسفة عند ماركس هي سلاح التغيير الثوري للعالم. إن الفهم المادي للتاريخ يعطي القيمة الكاملة للفكرة العبقرية لدى ماركس القائلة:

#### "لم يعمل الفلاسفة إلا على تفسير العالم بأشكال مختلفة، بل يجب العمل على تغييره".

يظهر مما سبق، أن المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، مرتبطان أشد الارتباط بشكل عضوي لا انفصام فيه، إنهما معا جزءان لا يتجزءان من مفهوم واحد للعالم، وعلى قاعدة هذا الطرح، وبناء عليه، فكل المحاولات للفصل بينهما محكوم عليها بالفشل.

2017 6 2

ومنهم من سيصير أسلافا للفصائل القائمة الآن من القرود، ومنها الشامبانزي والغوريلا والجيبون ...

كانت مختلف الفصائل تختلف بطبيعتها المورفولوجية والفيزيولوجية وبنمط حياتها، وتلك التي انبثق عنها الإنسان، كانت الأقل تخصصا، فقد تكيفت مع وضعية الوقوف والحياة على الأرض، بينما كان أجداد الغوريلا والشامبانزي الحالية، قد تكيفت مع نمط الحياة في الأشجار، ولذلك أصبحت أذرعها أطول بينما أرجلها قصيرة.

#### ماهي العوامل التي ساهمت في تطور أجداد الإنسان؟

هناك عاملان:

- ظهور الأشكال الأولى للعمل والتجمع في قطيع مستقر بهذا القدر أو ذاك، وبفضل هذا العامل أي العمل، ولو بشكل جنيني توسعت قائمة المواد الاستهلاكية، بينما سمح نمط الحياة الجماعي لسلف الإنسان أن يحمي نفسه بفعالية ضد الحيوانات المفترسة، والتي تفوقه قوة، وفي نفس الوقت سمح له ذلك بالتعاطي لصيد الحيوانات المتوحشة . خلال هذه السيرورة، وبشكل تدريجي تحول العمل من وسيلة رئيسية للنضال من اجل الوجود خاضعة لميكانيزم الارتقاء الطبيعي، ليصبح عاملا نشيطا الوجود خاضعة لميكانيزم الارتقاء الطبيعي، ليصبح عاملا نشيطا

يخضع ميكانيزم هذا القانون البيولوجي للقانون الاجتماعي، فأصبح الإنسان كائنا اجتماعيا.

إن النضال من أجل الحياة فرض على الأنتروبوبيد تحسينا مستمرا لأدوات العمل التي تقدمها الطبيعة، ثم الانتقال إلى مرحلة إتقان تلك الأشكال الطبيعية، عن طريق صناعة أدوات مصنعة، وفي هذه اللحظة بالضبط، ستنطلق سيرورة أنسنة القرد، ويقول انجلز في "جدلية الطبيعة" العمل "هو الشرط الأساسي الأول لكل حياة إنسانية، وهو كذلك، إلى الحد الذي يمكن القول: العمل خلق الإنسان نفسه".

ويقول انجلز كذلك: "لم يسبق لأي يد قرد أن صنعت سكينا حجريا الأكثر رداءة" (نفس المرجع). وكما تظهره الاكتشافات الأركيولوجية، فأول ما صنعه الإنسان هو" قبضة اليد" وبشكل نموذج ثابت (ستاندار)، وكانت تستعمل أداة لإنتاج. إن صناعة أداة مثل هاته، وحسب نماذج قائمة، يفترض معرفة واطلاعا على تجربة صناعتها، وهاته المعرفة وهذه التجربة المنتجة لا يمكن أن تنتقل ويحافظ عليها من جيل إلى آخر، إلا وجود مجتمع أو جماعة منتجة، وهي أمور كانت مستحيلة في جماعة حيوانية.

→ إن الانتقال إلى صناعة أدوات حجرية كنشاط دائم، واستعمال قوى الطبيعة كالنار والصيد الجماعي للحيوانات الوحشية، كل

هذه العناصر ساهمت في تعميق التحولات في الخصائص البيولوجية لدى أسلاف الإنسان.

ولأجل الحفاظ وضمان هذه الوحدة الإنتاجية للقطيع، كان لابد من الحد من الفردانية الحيوانية، وهكذا شكل تحول القطيع الإنساني البدائي إلى مشاعة إنتاجية، انتصارا للاجتماعي على البيولوجي.

على إثر ظهور مجتمع العشيرة، كان الإنتاج وإعادة إنتاج الخيرات المادية ممركزا في حدود العشيرة، وإعادة إنتاج أعضاء عشيرة معينة ما كان ليتم إلا عن طريق الارتباط الضيق، بل وغير القابل للانفكاك مع عشيرة أخرى، وقد كانت هذه العلاقات في بدايتها غير مقننة، لكن بعد ذلك تم وضع أشكال محددة للزواج من أجل تقنينها، وفي مجتمع العشيرة أخذت العلاقات البيولوجية بين الجنسين شكل علاقات أسرية قائمة على أساس روابط الزواج، وفي هذا الميدان كذلك انتصر الإنساني على البيولوجي. ومنذ المرحلة التي أخذ فيها الإنسان مميزاته الحالية، أصبح تطور المجتمع غير مرتبط بالتحولات المورفولوجية والفيزيولوجية بل بتطور أدوات الإنتاج، وفي المجالات الاقتصادية المختلفة حوالي خمسين ألف سنة وسبعين ألف سنة، وهي اللحظة التي ظهر فيها الإنسان الحديث.

#### الإنتاج الاجتماعي والوسط الجغرافي

كثيرا ما يساء فهم المعنى الحقيقي لمفهوم الوسط الجغرافي، والمقصود عموما بالوسط الجغرافي، الظروف الطبيعية التي تشكل إطار مجتمع ما، والعوامل المكونة للوسط الجغرافي، هي التضاريس والمناخ والموارد المائية وطبيعة الأرض والنباتات والحيوانات وباطن الأرض، وتراب كل بلد يمثل تمازجا وحيدا في نوعه لكل هذه العوامل.

إن التراب الذي على قاعدته وضعت صدفة التاريخ هذا أو ذاك من الشعوب، هو جزء لا يتجزأ، وانطلاقا من ذلك فهو مرتبط بشكل مباشر بمجموع الظروف الطبيعية لوجود الإنسانية. إن الوسط الطبيعي المشترك لكل الإنسانية، يتشكل من الأرض، ومن روابطها مع الأجسام الفضائية الأخرى.

ليس لمفهوم الوسط الجغرافي معنى إلا بارتباط مع المجتمع، وهو مثل هذا الأخير له معنى تاريخي، والوسط الجغرافي متغير باستمرار، فالبشرية كانت شاهدة على تغيرات عميقة في هذا المجال، وبالنسبة لعلوم الجيولوجيا والجغرافيا، فمثلا خلال خمسين أو سبعين ألف سنة الاخيرة، عرف كوكب الأرض تحولات جيولوجية وجغرافية عميقة، فالبشر القدامي الذين سكنوا أوربا عايشوا المراحل الأخيرة للعصر الجليدي الذي انتهى منذ 12 ألف

سنة تقريبا. بعد تراجع الجليد عرف مناخ أوربا تغيرات مختلفة، ويقسمها العلماء إلى ست فترات مناخية: الأركتيك والفوق أركتيك والنباتية (أي 7000 إلى 5000 سنة قبل الميلاد) والأطلنتيكية (من 5000 إلى 3000 سنة قبل الميلاد) وسوبوريال (من 5000 إلى 9000 سنة ق.م) ثم سوبأتلنتيك (من 500 ق.م إلى يومنا هذا). ومهما تكن أهمية التغيرات الجغرافية التي تعود لأسباب طبيعية، فإننا لا يمكننا مقارنتها مع تلك التي سببها ظهور الرعي والزراعة منذ 8000 أو 9000 سنة ق.م.

هكذا وبقدر ما كانت تتطور هذه الأشكال الاقتصادية وبعدها الحرف، أصبح الإنسان يترك بصماته الخلاقة على الطبيعة. إن هذا التحول للوسط الجغرافي سيعرف وتائر متسارعة، نتيجة النشاط البشري، ابتداء من نهاية القرن 18، أي بعد الثورة الصناعية في بريطانيا، وهكذا، فإذا كان الناس في القديم، المنتمون لنفس الجيل، يعتبرون الطبيعة جامدة لا تتحرك، لأن التغييرات في الوسط الجغرافي كانت بطيئة، فإن الأجيال في القرن 19 و20 أصبحت شاهدة على تحولات طبيعية عملاقة، نتيجة تطور الصناعة وإدخال الآلات الزراعية.

وباختصار يمكن الآن القول أن الوسط الجغرافي هو اليوم نتاج لتبادل الفعل بين القوانين الطبيعية والقوانين الاجتماعية.

في الجماعات البدائية والمجتمعات العبودية والإقطاعية، كانت العوامل الجغرافية المناسبة للتطور الاقتصادي، تتشكل من القاعدة الزراعية وإنتاج وسائل الاستهلاك، بينما مع ظهور الأشكال الرأسمالية للإنتاج، أصبح الوسط الجغرافي يهم أساسا الخيرات الطبيعية كوسائل للعمل، أي التي تعنى القاعدة الطبيعية للصناعة، ولإنتاج وسائل الإنتاج، هكذا فوجود مناجم الفحم الكبيرة في بريطانيا وفرنسا وألمانيا، سرع التطور الاقتصادي لهذه البلدان في فجر الثورة الصناعية، وعلى العكس، فإن غياب هذه المناجم في اليابان فرمل التطور الاقتصادي في المرحلة الأولى لتطورها الرأسمالي ، وفي الولايات المتحدة الأمريكية ، لعبت الظروف الاجتماعية الدور الحاسم أكثر من الظروف الجغرافية، أي أن غياب الإقطاعية وآثارها، سمح للرأسمالية أن تتطور بكل حرية، وهذا عكس الحالة في أوربا.

#### الاشتراكية والوسط الجغرافي

إن انتصار الاشتراكية يغير جذريا موقف المجتمع تجاه الوسط الجغرافي، لأن الهدف الرئيسي للنشاط الاقتصادي هو تحقيق رفاه المجتمع. إن الملكية الاشتراكية لوسائل الإنتاج وتخطيط الحياة الاقتصادية على صعيد البلد، يسمحان بالاستعمال العقلاني للخيرات الطبيعية للتحكم في عناصرها.

#### الإنتاج الاجتماعي والسكان

إن إعادة الإنتاج الموسع لوسائل الإنتاج ولحاجيات الاستهلاك، من نتائجها إدخال عدد متزايد من البشر في سيرورة الإنتاج، مما يتطلب المزيد من اليد العاملة.

إن قوانين إعادة إنتاج القوة العاملة مرتبط بدرجة تطور القوى المنتجة، وبطابع النظام الاجتماعي والسياسي القائم في بلد ما، وفي نفس الوقت، وفي كل مراحل التطور الاجتماعي، تتأثر هذه القوانين بخصوصيات إعادة إنتاج النوع البشري كنوع بيولوجي محدد.

إن متغيرات العدد أو كثافة السكان، بإمكانها أن تساعد أو تعرقل تطور الإنتاج الاجتماعي بحسب الظروف التاريخية الملموسة، غير أنه وكيفما كان تأثير هذان العاملان، فإنهما لا يمثلان قوة تستطيع تحديد تطور المجتمع وتشكل وتتابع التشكيلات الاقتصادية والاجتماعية.

إن طول عمر الإنسان يرتبط بالظروف الاجتماعية، فإذا كان عمر الإنسان في العصر الحجري والبرونزي رلا يتجاوز 18 سنة، وفي الإمبراطورية الرومانية أصبح 25 سنة، وفي منتصف القرن 19 قد وصل إلى 34 سنة، والآن بالنسبة لمجموع العالم فقد وصل من 50 إلى 60 سنة تقريبا بل تجاوز ذلك احيانا.

في الأصل فإنه من 70 ألف سنة إلى 10 آلاف سنة ق.م، لم يكن النمو الديموغرافي السنوي ذا قيمة كبيرة، وحتى مع ظهور الزراعة وتربية الماشية لم يتعد بعض الأجزاء من المئة، ومع ظهور الاقتصاد الرأسمالي تغيرت الوضعية، ففي بداية القرن 17 وصل النمو الديموغرافي إلى 0,1%، وابتداء من 1750 وإلى حدود 1850 أصبح 0,5%، وفي مرحلة ما بعد الحرب أصبح 1,5% وعند فاتح يوليوز 2017 أصبح 1,2%.

وبالنسبة لدورات النمو السكاني، فمن سنة 1000 م إلى 1964 تضاعفت نسبة السكان 10 مرات، وقد تطلب أول تضاعف لعدد السكان 700 سنة، و150 سنة بعد ذلك، وبالنسبة للوضع الحالي فإن الأمر لا يتطلب أكثر من 35 سنة.

#### القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج

إن الإنتاج الاجتماعي يتكون من عنصرين: القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج.

#### ماهي القوى المنتجة؟

إنها القوى التي يستخدمها المجتمع للتأثير على الطبيعة، من أجل التزود بوسائل العيش الضرورية، ومن أجل إخضاع العناصر

الطبيعية، ويضم مفهوم القوى المنتجة، كلا من وسائل الإنتاج التي يخلقها المجتمع، خاصة وسائل العمل، وكذلك الناس الذين يساهمون في إنتاج الخيرات المادية.

تعد الوسائل وأدوات العمل العامل الحاسم في القوى المنتجة، فهما الأشياء التي يستعملها الإنسان من أجل إنتاج الخيرات المادية، وذلك بعد سيطرته وتحكمه في الطاقة الطبيعية. إن العنصر الرئيسي في القوى المنتجة هو قوة العمل، أي الناس الذين يحركون الوسائل ومواد العمل، من أجل إنتاج الخيرات المادية، والذين يتوفرون على المعارف الضرورية وعلى التجربة العملية، وعلى عادات العمل الضرورية. وعندما يقول الماركسيون بأن الناس هم جزء لا يتجزأ من القوى المنتجة، فهم يعنون بذلك مجموع القوة العمالية للمجتمع.

#### ما هي علاقات الإنتاج أو العلاقات الاقتصادية

إن إنتاج الخيرات المادية في كل مجتمع منذ العصور القديمة يتحقق على قاعدة قسمة العمل الاجتماعي. إن قسمة العمل، أو بمعنى آخر تخصص وتعاون المنتجين في عملية الإنتاج، تنفي كل عمل معزول خارج الارتباط مع الناس الآخرين، ومن أجل جعل الإنتاج منسجما في ظروف عمل متخصص ومتعاون كيفما كانت بساطته، يجب على الناس ربط تعاون فيما بينهم، وكذلك روابط

وعلاقات إنتاج لابد منها. إن طبيعة هذه الروابط مشروطة بأشكال ملكية وسائل الإنتاج. إن قاعدة علاقات الإنتاج، هي قبل كل شيء علاقات الملكية.

ففي دائرة الإنتاج المباشر، فإن العلاقات بين المنتجين مشروطة باستملاك وسائل الإنتاج وقوة العمل، وفي دائرة التوزيع تتدخل علاقات الملكية باعتبارها علاقات مرتبطة باستملاك نتائج العمل، أي منتوج الإنتاج الاجتماعي. أما في دائرة التبادل فالعلاقات بين المساهمين في القسمة الاجتماعية للعمل المرتبطة بإعادة توزيع نتائج الإنتاج تتم تحت شكل ملموس للاستهلاك، وأخيرا، وفي دائرة الاستهلاك، فهناك العلاقات المرتبطة باستملاك مواد الاستهلاك غير المنتجة، الشخصية والاجتماعية، أي مواد الاستهلاك غير المنتجة، الشخصية والاجتماعية، أي التحقيق الفعلي لوسائل العيش المنتجة.

# إن أهم علاقات الملكية، وبالتالي أهم علاقات الإنتاج هي العلاقة تجاه وسائل الإنتاج.

إن علاقات الإنتاج، كما القوى المنتجة، لهما طابع تاريخي، فهناك، حيث وسائل الإنتاج والإنتاج الاجتماعي تستحوذ عليها طبقة الملاكين، وحيث بالتالي يتعرض المنتجون المباشرون للاستغلال، فإن التعاون بين الناس في سيرورة الإنتاج يأخذ طابعا

تناحريا، كما هو الحال بالنسبة لعلاقات الإنتاج في المجتمع العبودي والإقطاعي والرأسمالي.

وهناك حيث المنتجون متساوون أمام ملكية وسائل الإنتاج ونتائج العمل، ومجتمعون في مجموعة إنتاج على قاعدة التزام الجميع بالعمل، لا يمكن استغلال الإنسان من طرف الإنسان، أي ليس هناك تناقض عدائي اجتماعيا.

إن الوحدة التاريخية الملموسة للقوى المنتجة وعلاقات الإنتاج التي تناسبها يشكلان نمط الإنتاج للخيرات المادية. إن نمط الإنتاج هو القاعدة المادية لكل تشكيلة اقتصادية واجتماعية.

#### جدلية القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج

إن تطور القوى المنتجة هو نقطة انطلاق تقدم الإنتاج المادي. إن القوى المنتجة هي العامل الأكثر حركية لنمط الإنتاج والخيرات المادية، وكقاعدة عامة، فالقوى المنتجة هي التي تتغير في الأول، وبعد ذلك، تأتي قوى الإنتاج بين الناس، الشكل الاجتماعي للإنتاج.

في مقدمة "الاقتصاد السياسي" يقول ماركس:

"خلال الإنتاج الاجتماعي لوجودهم، يدخل الناس في علاقات محددة ضرورية، مستقلة عن إرادتهم، علاقات إنتاج تناسب درجة تطور محدد لقواهم المنتجة المادية".

→ إن ماركس هنا يبلور قانون التوافق بين علاقات الإنتاج وطابع ومستوى تطور قوى الإنتاج.

من هذا القانون نستنتج أن الناس لا يمكن لهم أن يختاروا تعسفيا علاقاتهم الإنتاجية، بل إنهم ملزمون دائما بتحقيق علاقات اقتصادية بينهم توافق أو تناسب طبيعة ومستوى حالة القوى المنتجة.

إن تطور القوى المنتجة يؤدي بالضرورة إلى تغيير علاقات الإنتاج، التي تمثل في مجموعها البنية الاقتصادية لمجتمع ما.

هكذا نرى أن تطور علاقات الإنتاج مرتبط بالتحولات التي تحصل على مستوى القوى المنتجة، ومع ذلك تتوفر علاقات الإنتاج على استقلال نسبي في تطورها، الذي يؤثر بدوره على تطور القوى المنتجة.

→ تشكل القوى المنتجة مضمون الإنتاج الاجتماعي، بينما تشكل علاقات الإنتاج شكله، والشكل لا يمكن أن يوافق المضمون إلا ضمن علاقة جدلية تجمع بين الوحدة والتناقض.

إن تطابق علاقات الإنتاج والقوى المنتجة، تظهر من خلال حوافز تطور القوى المنتجة المحددة بعلاقات الإنتاج التي تسمح بتطور قوى الإنتاج. هنا تساهم علاقات الإنتاج بتسريع تطور القوى المنتجة.

وعلى العكس من ذلك، هناك لا توافق بينهما حينما، عند مستوى معين من التطور، تكون فيه القوى المنتجة في حاجة إلى حوافز اقتصادية جديدة، حيث أصبحت القديمة تعرقل تطور القوى المنتجة. هكذا تكون علاقات الإنتاج قد أصبحت عرقلة أمام تطور القوى المنتجة. وعموما يجب علينا أن نفهم أن توافق أو تطابق علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج مسألة دائما نسبية.

#### قوانين الانتقال من نمط إنتاج قديم إلى آخر جديد

يظهر لنا تاريخ المجتمع بأن نمط الإنتاج الجديد لا ينبثق دفعة واحدة وبشكل نهائي، بل يظهر عادة في شكل بنية اقتصادية، خاصة داخل التشكيلة الاجتماعية القديمة والمثال على ذلك المشاعة البدائية وانبثاق قوى منتجة جديدة وعلاقات جديدة توافقها، والعلاقات العبودية ونفس الحالة بالنسبة لنمط الإقطاعي والرأسمالي.

→ كما تشهد التجربة التاريخية، فالانتقال من نمط إنتاج قديم إلى نمط إنتاج جديد لا يتحدد بالاختيار الحر للناس أو إرادتهم، ولكن ذلك يخضع لقوانين التطور الاقتصادي الذي يفعل خارج إرادتهم و وعيهم.

#### يقول ماركس في رسالة إلى أننكوف (1846):

"ليس الناس أحرارا تجاه قواهم المنتجة – التي تشكل قاعدة كل تاريخهم – ذلك أن كل قوة منتجة هي قوة مكتسبة ونتاج لنشاط سابق".

→ إن التغييرات الجذرية التي تحصل في علاقات الإنتاج، والتي تؤدي إلى تغيير نوع من علاقات الإنتاج بأخرى، والمرور من تشكيلة اجتماعية إلى أخرى أعلى، تتم عن طريق الثورات الاجتماعية. إن القول بأنها تتم عبر ثورات اجتماعية لا ينفي وجود تغييرات ثانوية من داخل تشكيلة اجتماعية محددة، عبر تكيفات معينة تقع ما بين علاقات الإنتاج والقوى المنتجة، إلا أن هذه الحالة ليست بلا حدود، وكنموذج على هذه التكيفات، ما عرفه نمط الإنتاج الإقطاعي من تغيرات على مستوى الربع الإقطاعي نمط الإنتاج الإقطاعي من تغيرات على مستوى الربع الإقطاعي أشكالا أخرى للربع عيني ← ربع نقدي). لكن التاريخ لم يعرف أشكالا أخرى للربع خارج هذه الأشكال الثلاثة للربع، ذلك أن

تطور القوى المنتجة فرض، ليس إيجاد شكل جديد من الريع، بل ثورة في علاقات الإنتاج، أي نوع جديد من علاقات الإنتاج: إنها العلاقات الرأسمالية.

وقد عرفت الرأسمالية نفس هذا التطور، حيث يتم التكيف مع القوى المنتجة، آخرها ظهور الرأسمالية الاحتكارية وما تعرفه هذه الاخيرة من تطورات مع العولمة الامبريالية الجديدة.

وما يجب ملاحظته، هو أن علاقات إنتاج جديدة لا تصبح مسيطرة قبل أن تصبح العلاقات القديمة منتهية الصلاحية بالكامل، وقبل أن تتشكل من داخلها قوى منتجة جديدة، وقد كتب ماركس يقول في مقدمة كتاب "الاقتصاد السياسي":

"إن تشكيلة اجتماعية لا تختفي قبل أن تتطور كل القوى المنتجة التي تملك السعة لاحتوائها، أبدا، لا تأخذ علاقات إنتاج جديدة وأرقى مكان الأخرى، قبل أن تتفتح ظروف الوجود المادي لهذه العلاقات في وسط المجتمع القديم نفسه".

إن المرور من نمط إنتاج قديم إلى نمط إنتاج جديد، لا تتم بنفس الطريقة في جميع التشكيلات الاجتماعية، وهكذا فإن الانتقال إلى الاشتراكية يتميز بعدم ظهوره وسط المجتمع الرأسمالي كما حصل مع الرأسمالية التي ظهرت في قلب المجتمع الإقطاعي.

﴾ في أحضان الرأسمالية لا تظهر إلا الظروف المادية والتقنية التي تسمح ببناء الاشتراكية، ونعني بهذا تنامي القوى المنتجة التي يكون لها طابع اجتماعي.

#### لماذا هذا الفرق وكيف يمكن تفسيره ؟

عندما تأخذ الرأسمالية مكان الإقطاعية، فطبيعة علاقات الإنتاج لا تتغير فكل ما هنالك أن نوعا من الملكية الخاصة تحل محل أخرى، ففي وسط المجتمع الإقطاعي، وخلال تطوره، سيأخذ الملاكون الخواص أي الرأسماليون، أو بالأحرى سيصبحون الطبقة المسيطرة اقتصاديا، وعبر الثورة السياسية سيقضون على طبقة الملاكين العقاربين الكبار، وسيفرضون السيطرة السياسية للبورجوازية. وبالنسبة للاشتراكية فالوضع مختلف، فمالك وسائل الإنتاج في النظام الاشتراكي لا يمكن أن يكون إلا الطبقة العاملة، والتحول الاشتراكي للاقتصاد لا يبدأ إلا بعد قلب السيطرة السياسية للبورجوازية وفرض دكتاتورية البروليتاريا، وبين الرأسمالية والاشتراكية تمتد فترة طويلة بشكل عام للانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية، على إثر الانقلابات الثورية، وخلال هذه الفترة تعزز الملكية الاشتراكية وضعيتها في كل قطاعات الاقتصاد الوطني وينبني اقتصاد اشتراكي. وعلى الصعيد العالمي أصبح التقارب بين مهام الثورة الديموقراطية والثورة الاشتراكية أحد مميزات الحركة الثورية العالمية، فانتصار الثورة الديموقراطية

(العلقة 4

الموضوعة السادسة: الأشكال المختلفة للوعي الاجتماعي

هناك، إلى جانب الظواهر ذات الطبيعة المادية أو الاجتماعية أو الاقتصادية، تضم الحياة الاجتماعية تمظهرات عدة للحياة العقلية أطلقت عليها الماركسية اسم الوعي الاجتماعي.

- فما هو إذن الوعي الاجتماعي؟
  - ما هي بنيته وأصوله؟
  - ما دوره في التطور التاريخي؟
- ما المقصود بخصوصية أشكاله المختلفة؟

كل هذه الأسئلة المختلفة مرتبطة بشكل وثيق بإشكالية الوعي الاجتماعي، وسنحاول الإجابة عنها في هذه الحلقة الرابعة.

1) الوعي الاجتماعي كانعكاس للوجود الاجتماعي

الشعبية خلال المرحلة الديموقراطية (المعادية للكومبرادور والإقطاع) يمكن أن تفضي إلى بناء سلطة إذا حققت بطريقة منسجمة حتى النهاية الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية المعادية للكومبرادور والإقطاع، وذلك في الصناعة والزراعة، ستحل في نفس الآن جزءا من المهام المعادية للرأسمالية اي الاشتراكية.

إن بناء الاشتراكية هو نتاج مجهودات واعية لملايين العمال، الشيء الذي لا يعني أن التطور الاقتصادي للمجتمع الاشتراكي محدد بالوعي الإنساني، وبالنتيجة لم يعد سيرورة موضوعية. إن توجيه تطور الاقتصاد لا يمنع من ارتباط الناس بالظروف الموضوعية التي يعيشون فيها ويفعلون، وهنا كذلك، لا يمكن للناس أن يختاروا بشكل تعسفي القوى المنتجة، وعليهم الانطلاق من المرحلة التي وصل إليها تطور القوى المنتجة لتثوير علاقات الانتاج وبناء الاشتراكية على طريق المجتمع الشيوعي حيث يتم الانتقال من شعار "لكل حسب عمله" إلى شعار "لكل حسب حاجته" ومن مجتمع الضرورة إلى مجتمع الحرية.

28 مخشن 2017

يعتمد المنظور الماركسي للوعي الاجتماعي في تحديده لجوهره وبنيته على المقولة الماركسية الشهيرة:

"ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم، بل العكس فوجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم".

إن هذا يعني أن الوعي الاجتماعي مرتبط وتابع للوجود الاجتماعي، الذي يولده ويحدد شروطه، هكذا فالوعي الاجتماعي يظهر كانعكاس للوجود الاجتماعي، أي الأساس المادي للمجتمع.

وبشكل عام، فالوعي الاجتماعي يتضمن كل أشكال انعكاس الواقع الاجتماعي في الفكر الإنساني، ونعني بذلك الأفكار والنظريات الاجتماعية والآراء السياسية والقانونية والتصورات الأخلاقية والجمالية والأفكار الدينية، ويدخل في نفس الإطار العادات والتقاليد والعواطف الاجتماعية للناس، والخصوصيات النفسية لأمة ما أو شعب ما.

وتقوم المادية التاريخية بتقسيم الحياة العقلية في المجتمع إلى دائرتين متميزتين ومرتبطتين وهما: البسيكولوجية الاجتماعية والإيديولوجيا.

#### أ – البسيكولوجيا الاجتماعية:

تعكس البسيكولوجيا الاجتماعية الظروف المباشرة لحياة الناس، وهي بذلك تتضمن العواطف الاجتماعية والحالات العقلية والتصورات والتأثرات، وكذلك الأوهام والأفكار المسبقة، والتقاليد المتولدة عن التجربة العملية والملاحظة الشخصية للناس خلال حياتهم اليومية.

إن البسيكولوجيا الاجتماعية تجسد وعي الجماهير الواسعة، ورد فعلها المباشر النفسي تجاه الواقع.

إن الظروف التاريخية التي يعيش فيها الناس والأمم والشعوب والطبقات والمجموعات الاجتماعية تنتج نوعا محددا من البسيكولوجيا الاجتماعية.

عندما ندرس مجتمعا منقسما إلى طبقات، فأول شيء يثير انتباهنا هو أن البسيكولوجيا الاجتماعية تتميز بطابع طبقي. كل طبقة تحتل مكانا محددا في نظام علاقات الإنتاج، ولها مصالحها الخاصة والحياة العامة. وممارسة ممثلي الطبقات المختلفة تثبت أن لكل منها تصورها وإدراكها للوسط الاجتماعي، ومن تم، فالأفكار والعواطف والتصورات والتمثلات وعقلية الناس، وعموما، فالبسيكولوجيا الاجتماعية لها طابع طبقي، نطلق عليه "العاطفة الطبقية" و "الغريزة الطبقية". فواقع البروليتاريا

وظروف عيشها في ظل الرأسمالية، تولد لديها عداء للاضطهاد ووعيا بضرورة النضال من أجل تحسين وضعها. والنضال ضد الرأسمالية والعمل المشترك في المؤسسات الإنتاجية الكبرى يولد لدى العمال مميزات مثل: الجماعية، التضامن البروليتاري، الانسجام وروح التنظيم.

وعلى العكس من ذلك، فالميزة الأساسية للبسيكولوجيا البورجوازية، هي الفردانية وحب الترف، وهذا مرتبط بالملكية الرأسمالية وبالمنافسة والعلاقات الاجتماعية البورجوازية.

إن الوضع الغامض للبورجوازية الصغيرة في ظل الرأسمالية يفسر سلوكها السياسي غير المستقر، وتذبذباتها بين الإهانة والتطرف "اليساري الثوري" والمغامرة.

إن البسيكولوجيا الاجتماعية هي إحدى العناصر المكونة الأكثر أهمية للوعي الاجتماعي، غير انها تعتبر محدودة لأنها تعبر بطريقة غامضة وأقل تطورا عن مصالح طبقة معينة، لأنها تتكون بشكل عفوي وليس بشكل واعي، لأنها تترجم المصالح العملية والمباشرة لطبقة ما، فهي لا تأخذ بعين الاعتبار الظروف المادية والسياسية القائمة كوجود تلك الطبقات في شموليتها، أي أنها لا ترتفع إلى مستوى فهم المهام والآفاق السياسية لهذه الطبقة وكذلك للمجتمع.

لذلك، وباعتبارها درجة أولى ومتدنية في معرفة الأشياء الاجتماعية، فلا يمكن لها ادعاء خدمة – كنقطة انطلاق نظرية – كل المهام التاريخية وتغيير العلاقات الاجتماعية.

ومع ذلك، لا يمكن تبخيسها، فهي ذات أهمية لنشاط القوى التقدمية والثورية في المجتمع، لأن تلك القوى في سعيها لتنظيم الجماهير ضد الرجعية أو ضد الامبريالية، عليها بتحليل دقيق للعواطف الاجتماعية وعقلية مختلف فئات العمال والكادحين وغيرهم، وذلك لجرهم إلى ميدان النضال المشترك.

#### ب - الإيديولوجيا:

الإيديولوجيا هي الدرجة العليا من الوعي الاجتماعي، وهي عبارة عن نظام للأفكار والتصورات والمبادئ النظرية تعكس بشكل صحيح أو مشوه العلاقات الاقتصادية للمجتمع، انطلاقا من مواقف طبقة اجتماعية محددة.

ليس هناك فرق مطلق بين الإيديولوجيا والبسيكولوجيا الاجتماعية، إن القول بعكس ذلك يعتبر خطأ، فهما مرتبطتان بشكل وثيق ويعملان بشكل لا انفصام فيه، ويقفان معا على أرضية واحدة مشتركة، هي الوجود الاجتماعي والوضع المختلف للطبقات المختلفة والمجموعات الاجتماعية داخل نظام العلاقات الاجتماعية.

داخل كل مجتمع طبقى، تحاول الإيديولوجيا السائدة بكل الوسائل الضغط بسيكولوجيا على الطبقة المضطهدة، وجعلها تقبل بالعلاقات الاجتماعية القائمة.

إننا، عندما نقسم بشكل اصطلاحي الوعي الاجتماعي إلى إيديولوجيا وبسيكولوجيا اجتماعية، فالمقصود بذلك، هو التمييز بين مستويين من الوعي: الوعي المعتاد والوعي النظري، فهناك فرق حقيقي يفصل ما بين المستويين داخل البنية العامة للوعي الاجتماعي، ولذلك أهمية ذات بعد ثوري.

أولا، فرغم أن بسيكولوجيا الطبقات لها تأثيرات مهمة على ظهور الأفكار والنظريات الاجتماعية، إلا أنها ليست المصدر الحصري، فالعلاقات والسيرورات الاجتماعية الواقعية والمصالح الطبقية هي التي تعكسها تلك الأفكار وتلك النظريات.

ثانيا، إن ما يصنع أصالة الإيديولوجيا هو أن الأفكار والآراء تأخذ طابعا منظما ونظريا مكتملا تحت شكل أنظمة ومفاهيم.

إن الإيديولوجيا تقدم لنا انعكاسا ممنهجا مكتملا نظريا للوجود الاجتماعي المنظور إليه عبر مواقف طبقات محددة، فهو ليس بظاهرة عفوية، ولا عمل طبقة كاملة، بل عمل إيديولوجييها، أو كما يقول لينين: "العناصر المفكرة لطبقة ما"، وبتعبير ماركس،

فإن الممثلين الإيديولوجيين لطبقة محددة يتوصلون عن طريق النظرية إلى خلاصات أو نتائج تصل إليها طبقتهم عمليا.

إن الإيديولوجيا الماركسية نفسها، لم تولد وتتطور انطلاقا من الوعي المعتاد والعفوي للطبقة العاملة، بل انطلاقا من العلم، يقول لينين:

"باعتبار الاشتراكية إيديولوجية الصراع الطبقى للبروليتاريا، فإنها تخضع للظروف المشتركة التي تحكم ولادة وتطور وتعزيز كل إيديولوجيا"، أي أنها تتأسس على قاعدة تراث المعرفة الإنسانية.

تقدم الإيديولوجيا تكثيفا للمصالح والأهداف والمهام لهذه الطبقة الاجتماعية أو تلك، والهادفة، إما إلى تعزيز وتطوير العلاقات الاجتماعية القائمة، أو على العكس، إلى قلبها.

وعموما، فالإيديولوجيا تعنى بشكل عام مجموع الأفكار السياسية والأخلاقية والفلسفية والجمالية ... التي تعبر عن مصالح وأهداف ومهام هذه الطبقة أو تلك ...

وعلينا أن نميز بين أمرين في علاقتهما، بين الوعي الاجتماعي (الجماعي) والوعي الفردي. إن وعي الناس له دائما طابع اجتماعي، لأنه نتاج اجتماعي وسيبقى كذلك ما دام الناس موجودين.

وبالرغم من التأكيد على هذا الطابع الاجتماعي، فإن المادية التاريخية لا تنكر الخصوصيات الفردية للفكر وعقليات الناس، أي البسيكولوجيا الفردية.

وتعتبر الماركسية أن الوعي الاجتماعي لا يمكن أن يوجد خارج تكئته الملموسة، أي الكائن الإنساني، فالوعى الاجتماعي ليس كيانا اسطوريا يرتفع فوق المجتمع، سواء سميناه وعيا شعبيا أو روحا وطنية، كما هو الحال عند الفلاسفة المثاليين، فلا وجود له خارج المجتمع، الطبقات والأفراد الملموسين.

إن الوعي الفردي هو العالم العقلي لكائن إنساني محدد، لكنه يقوم ضمن التلاحم المستمر بين الاجتماعي والفردي، فالأول يتحقق عبر الأفراد الملموسين، والثاني يأخذ طابعا اجتماعيا باستمرار. لا يوجد الفردي والاجتماعي إلا الواحد في الآخر، والواحد عبر الآخر.

إن هذه الوحدة الجدلية لا تنفي التناقض، فقد يقع ألا توافق أفكار وآراء فرد آراء طبقة أو مجموعة اجتماعية، وقد تكون معارضة لها. فممثلو الطبقات يمكن أن يتميزوا بخصوصيات فردية تعود إلى التربية والتأثيرات السياسية والإيديولوجية المختلفة، التي تأثر بها الفرد خلال مسار حياته.

فهناك نماذج لمثقفين أو لممثلي الطبقات السائدة، الذين تخلوا عن مواقفهم الطبقية، التي ينتمون إليها بحكم أصلهم الاجتماعي

ليتبنوا مواقف العمال والكادحين المستغلين، وقد يقع العكس، أناس ينحدرون من الطبقة العاملة، يدافعون عن أفكار البورجوازية ويصبحون وكلاء للإيديولوجيا البورجوازية يعملون

ففي الحالة الأولى، يقوم فيها المثقف أو ممثل الطبقة البورجوازية بما يسمى عادة ب "الانتحار الطبقي". أما في الحالة الثانية فهناك ما يمكن أن نسميه ب "خيانة للطبقة الأصلية".

يقوم الماركسيون- اللينينيون بتوجيه عملهم الإيديولوجي نحو تشكيل وعي الجماهير الواسعة من العمال والارتفاع بها إلى مستوى الفئات الطليعية من الطبقة العاملة، وفي نفس الوقت يولون اهتماما كبيرا بالدعاية الفردية.

عموما، تشكل الظروف المادية لحياة المجتمع، العلاقات الاقتصادية، الوضع الطبقي، العناصر الرئيسية لضبط الوعي الاجتماعي، لأن كل هذه العوامل تحدد مصالح الناس وتطرح عليهم المهام الدقيقة، وتعطي للوعي الاجتماعي اتجاها محددا.

إن الأفكار والعواطف والتصورات الاجتماعية، هي التعبير الذاتي عن المصالح الموضوعية للناس، فيوم تتوقف عن كونها موافقة للمصالح الفعلية للطبقات والمجموعات الاجتماعية، تفقد

معناها الأول، فيتم تعويضها بأفكار جديدة وتصورات مناسبة أكثر لمصالح اللحظة، فقد لاحظ ماركس قائلا:

# "إن الفكرة تورطت دائما عندما تميزت عن المصلحة" ("العائلة المقدسة، أو نقد النقد النقدي").

إن الوعي الاجتماعي، من خلال مضمونه وأشكاله الخصوصية، يأخذ طابعا تاريخيا، فلا يوجد، ولا يمكن أن يوجد وعي اجتماعي فوق التاريخ، وخارج التاريخ، تحت شكل "الروح الوطنية" أو "عقل كوني"، أسطوريين، فلا يمكن أن يكون هناك إلا وعي لمرحلة تاريخية محددة، في ظل تتابع المراحل التاريخية للمجتمع الإنساني.

إن الأفكار والنظريات الاجتماعية تتغير بحكم تغيرات القاعدة الاقتصادية للمجتمع، فبمضمونها الأساسي تعكس النظرات والنظريات السياسية والقانونية والأخلاقية والجمالية والدينية، البنية التحتية الاقتصادية للمجتمع.

#### يقول لينين:

"كما أن معرفة الإنسان تعكس الطبيعة التي توجد باستقلال عنه، أي المادة في طريق التطور، كذلك المعرفة الاجتماعية للإنسان (أي

الآراء المختلفة والمذاهب الفلسفية والدينية ...) تعكس النظام الاقتصادي للمجتمع".

في منظور لينين، فانعكاس الوجود الاجتماعي في الوعي الاجتماعي، ليس فعلا ميكانيكيا، بل له طابع حركة ديالكتيكية معقدة، فالوجود الاجتماعي لا يحدد الأشكال الإيديولوجية بشكل مباشر ولحظي، بل عبر شكل غير مباشر في نهاية التحليل.

هناك بين العلاقات الاقتصادية والبنية الإيديولوجية حلقات وسطى: الصراع الطبقي في المجتمع، العلاقات السياسية، البنية الفوقية السياسية والقانونية، العلاقات بين القوميات ...

إن الانعكاس الإيديولوجي يعني أن هناك فعل متبادل ديالكتيكي بين الموضوع والذات، الذي يعبر عن نفسه، ليس فقط عن طريق تأثير الاقتصاد على الإيديولوجيا، بل كذلك، عبر تأثير هذه الأخيرة على العلاقات الاقتصادية.

#### يقول انجلز:

"الاقتصاد لا يخلق شيئا بشكل مباشر، وبذاته، بل يحدد نمط التغيير والتطور اللاحق للمادة الفكرية المعطاة، وهذا في أغلب الأحيان يتم بشكل غير مباشر".

غالبا، ما يحول خصوم الماركسية المادية التاريخية إلى مادية اقتصادية، وقد رد مؤسساها ماركس وانجلز في كتابات ورسائل على تلك الترهات، التي تختزل الماركسية في نوع من الاقتصادوية أو المادية الاقتصادية (انظر كراسة ماركس وانجلز "رسائل حول المادية التاريخية".).

#### 2) الطابع الطبقي للوعي الاجتماعي: الإيديولوجية العلمية وغير العلمية

إن الأفكار الاجتماعية في مجتمع طبقي، لها دائما طابع طبقي، فكل طبقة اجتماعية تبلور نظام أراءها الخاص، الذي يعبر عن وضعها وعن مصالحها وعن احتياجاتها.

في القرن السابع عشر، إبان الثورة الانجليزية، قال المادي توماس هويز:

" لو أن مسلمات علم الهندسة خالفت مصالح الناس ستكون ريما قد دحضت" هوبس، ليفياثان، أكسفورد،1871.

في مجتمع مقسم إلى طبقات متعادية، يقدم انعكاس الوجود الاجتماعي في الوعي الاجتماعي دائما طابعا طبقيا.

→ كل الإيديولوجيين المنتمين لمرحلة ما قبل الماركسية، المنغلقين في حدود طبقتهم، ظلوا عاجزين عن خلق نظرية اجتماعية تكون في نفس الوقت علمية ومتسقة تسمح بتغيير ثوري للمجتمع، وهذا أمر لم يتوفر إلا لماركس وانجلز.

﴾ في كل مجتمع طبقي، هناك إيديولوجيتين على طرفي نقيض، إحداهما تعبر عن آراء الطبقة المستغلة (بكسر الغين) والأخرى تعبر عن الطبقة المستغلة.

لكن، ودائما، وفي كل مكان، فالإيديولوجيا المسيطرة هي إيديولوجية الطبقة التي تتحكم في زمام الأمور السياسية والاقتصادية للبلاد، وقد كتب ماركس وانجلز:

"... إن الطبقة التي هي القوة المادية المسيطرة في المجتمع، هي في نفس الوقت القوة الروحية والفكرية المسيطرة".

→ إن الروح الحزبية في الإيديولوجيا تعبر بطريقة عميقة عن الطابع الطبقي للأفكار والنظريات الاجتماعية، وينكر إيديولوجيو البورجوازية كل طابع حزبي للإيديولوجيا، ويحاولون الاستمرار في تمرير آرائهم ونظرياتهم، باعتبارها تصورات كونية وإنسانية فوق الطبقات، وملك لكل الشعب، إن ذلك لقمة في الوهم والنفاق، فوراء فكرة الحياد تجاه الأحزاب والطبقات تختفي روح حزبية: انتماء لحزب المستغلين (كسر الغين)، وقد كتب لينين يقول:

# " إن الاستقلال تجاه الأحزاب فكرة بورجوازية، أما فكرة الحزبية في المتراكية". في اشتراكية ".

→ خلافا للموضوعية المزيفة، وللاحتجاجات المنافقة، تعترف الماركسية ـ اللينينية صراحة، بالطابع الطبقي والروح الحزبية للإيديولوجيا، ويتم الإعلان بشكل واضح عن كون الإيديولوجيا الاشتراكية تخدم مصالح البروليتاريا ومصالح الجماهير الكادحة.

يستعمل خصوم الماركسية الحجة الرئيسية القائلة، بأن الروح الحزبية تتعارض مع العلم، وبأن الحقيقة والروح الحزبية هما تصوران ينفي أحدهما الآخر. وتنتشر وسط المدرسة البورجوازية لسوسيولوجيا المعرفة العديد من مثل هذه الأفكار، فكارل ماينهايم في كتابه "الإيديولوجيا واليوتوبيا" يؤكد على أن العلم موضوعي، لأن ليس له طابع حزبي، بينما الإيديولوجيا، بطابعها الطبقي، فهي دائما ذاتية، وتمثل تزويرا مقصودا، أو في أحسن الأحوال لا واعيا للعلاقات الاجتماعية.

وقد انتشرت في الربع الأخير للقرن العشرين، وإلى يومنا هذا، نظريات حول انمحاء الإيديولوجيا ونزع الإيديولوجيا عن العلوم والحياة الاجتماعية، وذلك تحت ادعاء أن الثورة العلمية والتقنية قد رسخت الفكر العقلاني والتقني الذي سيؤدي إلى نزع الإيديولوجيا عن السياسة والفلسفة والفنون ، ومن تمة نهاية

الايديولوجيا، ومهما يكن القول فهذه النبوءة كانت تقصد بالأساس الماركسية اللينينية، فمثل هذه النظريات هي نتاج الدعاية لإيديولوجية معينة هي ايديولوجية الطبقة البورجوازية، وتهدف إلى التشكيك في القيمة العلمية للماركسية اللينينية التي يطلق عليها ايديولوجيو الحرب ضد الشيوعية "يوتوبيا يطلق عليها و"ميثولوجيا اجتماعية" و"دين مزيف".

وعلى نفس المنحى ذهب التحريفيون، حينما ا دعوا ضرورة نزع الإيديولوجيا عن الماركسية وتحرير العلوم الاجتماعية من الإيديولوجيا، رافضين بذلك الروح الحزبية.

يستعمل التحريفيون استعمالات ماركس لمصطلح الإيديولوجيا والأدلجة بشكل سلبي، وعند ماركس وانجلز يكون المقصود هنا الوعي المزيف، يقول انجلز:

"الإيديولوجيا هي سيرورة ينجزها ما يسمى بالمفكر (بكسر الكاف) بدون شك بوعي، لكن بوعي زائف".

فماذا يعني ماركس وانجلز بالوعي الزائف المطبق على الإيديولوجيا؟

المقصود هنا بنقدهما، هو الوعي البورجوازي في زمانهما، الوعي الطبقي، الذي يخدع الآخرين ويخدع نفسه، الذي يعطي صورة

زائفة عن آفاق التطور التاريخي، ويحاول تمرير المصالح الأنانية للبورجوازية، باعتبارها مصالح لكل المجتمع.

→ على هذا الأساس، حدد مؤسسا الماركسية إيديولوجية الطبقة الرجعية، كوعي خاطئ يشوه حقيقة العلاقات الاجتماعية، وعلى العكس من ذلك، فالإيديولوجية الاشتراكية للبروليتاريا مؤسسة علميا، فهي موضوعيا حقيقية وتعارض جذريا الوعي الزائف البورجوازي، يقول انجلز:

#### "بفضل المادية التاريخية أصبحت الاشتراكية علما".

وعند لينين نجد كذلك استعمالات، من قبيل إيديولوجية علمية، عندما يتم وصف النظرية الماركسية، يسطر لينين قائلا:

### "الإيديولوجيا الاشتراكية تفترض تطورا عاليا للعلم وتفرض عملا علميا".

→ من هنا يتبين استحالة أي اعتماد على ماركس وانجلز من أجل نزع الإيديولوجيا، علما أن التعارض في العلم والإيديولوجيا، بين الإيديولوجيا والواقع، هو تصور بورجوازي، هدفه إخفاء التعارض الحقيقي، الذي يفصل بين الإيديولوجيا العلمية والإيديولوجيا غير العلمية.

إنهم، يلقون دائما على الماركسية، بهذا السؤال:

- ما هي العلاقة الحقيقية بين الإيديولوجيا والعلم، والتكيف الاجتماعي والحقيقة الموضوعية في بحث الظواهر الاجتماعية؟

إن إيديولوجية الطبقات الرجعية في جوهرها غير علمية، سواء من جهة المصالح، أو من جهة مواقف منظريها، غير قادرة على إعطاء تحليل علمي للواقع الاجتماعي ولاتجاهات تطوره.

تحاول الإيديولوجيا البورجوازية على كل الأصعدة، الاقتصادية والسياسية والأخلاقية والفلسفية والجمالية، التعبير عن مصالح طبقة محكوم عليها من طرف التاريخ ومعادية للتقدم الحقيقي وللمعرفة الموضوعية الحقيقية للمجتمع ولقوانين تطوره.

→ باعتبار الماركسية ـ اللينينية إيديولوجية البروليتاريا الثورية، فهي تقدم تحليلا صحيحا للعلاقات الاجتماعية ولآفاق التطور التاريخي، فالطابع الطبقي للنظرية الماركسية ـ اللينينية، لا ينكر، بل بالعكس يفترض المعرفة العلمية والموضوعية للواقع، وذلك:

أولا، لأن المصلحة الطبقية للبروليتاريا تتوافق مع السير الموضوعي للتاريخ، أي مع التقدم التاريخي، يقول انجلز:

" بقدر ما يتصرف العلم حرا، من أي مهادنة ومن أي منع، بقدر ما يجد نفسه متوافقا مع مصالح وطموحات الطبقة العاملة".

ثانيا، عندما نتطرق لمسألة الروح الحزبية، والموضوعية العلمية للماركسية ـ اللينينية، يجب أن نستحضر، أن طموح وأهداف ومهام الطبقة العاملة تتوافق في كل المسائل الأساسية مع مصالح كل العمال، ولا يمكن للبروليتاريا أن تكون لها طموحات طبقية ضيقة وحلقية مناقضة لمصالح الجماهير الكادحة.

إن الماركسيين ـ اللينينيين يدافعون عن الروح الحزبية في مصلحة أوسع الجماهير، من أجل تحررها من كل أشكال الأوهام البورجوازية.

→ إن الماركسية ـ اللينينية: كإيديولوجيا علمية للعمال، تجسد وحدة المصالح الطبقية والعلم، وحدة الروح الحزبية والحقيقة.

إن مبدأ الروح الحزبية الشيوعية للإيديولوجيا، هو مبدأ ديالكتيكي بشكل عميق، غريب عن كل صورة اختزالية ضيقة، عن كل قاعدة جامدة، عن كل انحياز.

إن الطابع الطبقي للإيديولوجيا يتمظهر بشكل مختلف، عبر الأشكال الإيديولوجية المختلفة حسب خصوصيتها. فبالنسبة للإيديولوجية السياسية مثلا، فالطابع الطبقي يتمظهر بشكل واضح على الأخص، لأنه عبر النظريات السياسية يتم التعبير عن المصالح الاقتصادية المباشرة للطبقات الاجتماعية، أما في الفلسفة، فالطابع الحزبي له ميزة أكثر تعقيدا، لكون الفلسفة

تتضمن، بالموازاة مع المظهر الإيديولوجي، تصورا للعالم لمختلف الطبقات والمجموعات الاجتماعية، ومظهرا علميا وفلسفيا كذلك لمعرفة الواقع. فالصراع بين الأفكار الفلسفية التقدمية والرجعية، بين المادية والمثالية، تعكس في آخر التحليل مواقف وصراع مختلف الطبقات. أما في ميدان الفن والأدب، فالروح الحزبية ليست جلية، لأنها لا تكشف عن نفسها إلا عبر التحليل التاريخي والنقد الملموس للأعمال، مما يجعل أن الآراء السياسية الشخصية، لهذا الكاتب أو ذاك، أو لهذا الفنان أو ذاك، لا تتطابق مع المضمون الموضوعي لعمله، مثال بالزاك وتولستوي.

إن الماركسية تقارب تحليل الظواهر الإيديولوجية بروح بعيدة عن كل دوغمائية وحلقية، فهي تفرض الأخذ بعين الاعتبار بكل دقة لمختلف العناصر الإيجابية للأعمال الفلسفية والأخلاقية والفنية، بالإضافة إلى تحديد واضح لتوجههم الإيديولوجي.

→ لا تقبل الماركسية بأي توافق بين إيديولوجيات متعارضة، فإما الإيديولوجيا البورجوازية، وإما الإيديولوجيا الاشتراكية، فليس هناك وسط، وليس هناك إيديولوجيا فوق الطبقات. إن كل تنقيص أو ابتعاد عن الإيديولوجية الاشتراكية هو سقوط في الإيديولوجية البورجوازية.

# الاستقلال النسبي للإيديولوجيا ودور الأفكار في التطور الاجتماعي

بالنسبة للمادية التاريخية، فكل الأفكار والتصورات الاجتماعية والوعي الاجتماعي في شموليته، تظهر وتتطور على قاعدة الظروف الاقتصادية، وعلى هذا الأساس، ليس لها تاريخ مستقل عن تاريخ المجتمع، وهذا الطرح هو أساس المادية التاريخية فيما يخص ظهور الوعي الاجتماعي وتطوره. إن القول بهذا لا ينكر دور الأفكار في تطور المجتمع، فالماركسية تقول بأن الإيديولوجيا لا تتحدد بالتطور الاقتصادي إلا في آخر التحليل، لوجود حلقات وسطى بين الاقتصاد والإيديولوجيا، مما يعني وجود استقلال نسبي للإيديولوجيا.

إن ميدان تاريخ الأفكار يمتلك قوانين خاصة ومنطقا خاصا يظهر خصوصية السيرورة الإيديولوجية يقول انجلز:

" كل ايديولوجيا، بعدما تتشكل، تتطور على قاعدة تيمة تصور محدد تقوم بإغنائه، وإلا لن تكون ايديولوجيا، بمعنى متابعة أفكار ككيانات تعيش حياة مستقلة، تتطور بشكل مستقل، وخاضعة فقط لقوانينها الخاصة".

 → إن تطور الإيديولوجيا لا يتحقق فقط على قاعدة القانون التاريخي الكوني، الذي حسبه يتولد الوعي الاجتماعي، ويتم شرطه

بالكائن الاجتماعي، بل كذلك على قاعدة القوانين الخاصة لتطور الإيديولوجيا، التي تعكس قدرتها على التطور حسب قوانين خاصة مرتبطة بمنطقها الداخلي الخاص.

→ إن كل نظام إيديولوجي جديد بحسب مضمونه، هو انعكاس للعلاقات الاقتصادية في المجتمع، وبشكله، استمرار للتطور السابق للفكر الإنساني، بمعنى آخر، مرتبط بالمعارف والتصورات والتمثلات المتراكمة لحد الآن، ففي كل مرحلة جديدة لا تولد الأفكار والنظريات الاجتماعية من عدم، بل تتبلور على قاعدة المادة الإيديولوجية للعصور السابقة، تحت تأثير المراحل السابقة للتطور الإيديولوجي، وتقيم معها علاقات استمرارية. هكذا يتشكل خط غير منقطع للتطور الإيديولوجي في كل ميادين الوعي الاجتماعي، من فلسفة وفن وأخلاق وعلم ...

﴾ إن الاستمرارية الإيديولوجية مرتبطة بالطابع الطبقي للمجتمع، فمختلف الطبقات الاجتماعية تغرف من الإرث الفكري للمراحل السابقة، مضمونا إيديولوجيا مختلفا، فالطبقات الاجتماعية التقدمية تعتمد على النظريات التقدمية للماضي، رافضة الأفكار الرجعية، التي مضى زمانها، فإيديولوجية هذه الطبقات، تتضمن بشكل مفكر فيه، العناصر الإيجابية لإرث الماضي، والماركسية اللينينية، باعتبارها مفهوم العالم للطبقة الأكثر ثورية، التي استوعبت كل ما كان جيدا وتقدميا في الأفكار والنظريات

والمكتسبات لعلم العصور السابقة، فالأخلاق الشيوعية تتضمن أفكار الإنسية والطموح إلى الحرية وقواعد الأخلاق الخاصة بكل الإنسانية، التي بلورتها الجماهير الشعبية عبر قرون ضد النير الاجتماعي والانحطاط الأخلاقي.

→ فالمطلوب إذن، احترام الإرث الثقافي لكل شعب، ولكل الشعوب، فالماركسيون ـ اللينينيون، وهم أمميون، فهم وطنيون كذلك، ومدافعون عن تراث بلدانهم. أما الطبقات الاجتماعية الرجعية، فعلى النقيض من ذلك، تغرف من الإرث الإيديولوجي للعصور السابقة للنظريات الرجعية وتكيفها مع مصالحها الطبقية

→ إن هذا المبدأ الماركسي ـ اللينيني لاستمرار الثقافة لذو مدى حاسم من أجل بناء مجتمع جديد اشتراكي، لأن الثقافة الاشتراكية لا تنبع من عدم، فهي استمرارية لأحسن النماذج والتقاليد وإنتاجات الثقافات الماضية.

#### 4) مسار التاريخ والتنبؤات حول ذلك

إن النظرية الاجتماعية الماركسية، هي الأولى، التي وضعت أرضية علمية لمسألة التنبؤات، فيما يخص مسار التاريخ، ذلك لأنها

تعتمد على معرفة علمية للواقع الموضوعي، للقوانين والاتجاهات بالنسبة لتطور المجتمع.

وهنا، لابد من تأكيد أمر آخر، وهو وجود إمكانية اتجاه نحو التأخر، بالنسبة للوجود الاجتماعي، وهذا متعلق بالوعي الاجتماعي، فبقايا الماضي تقاوم بعناد في مجال السيكولوجيا الاجتماعية، حيث تلعب العادات والتقاليد دورا كبيرا، ونفس الشيء بالنسبة للآراء والتمثلات المتجذرة.

يقول ماركس في قولته الشهيرة:

"إن تقاليد كل الأجيال الميتة تنزل بثقلها الكبير على عقل الأحياء".

إن تأخر الوعي الاجتماعي عن الوجود الاجتماعي لا يخص فقط ميدان البسيكولوجيا الاجتماعية، بل يمس كذلك مجال الإيديولوجيا، خاصة نظريات وأفكار الطبقات الاجتماعية الرجعية، فالأفكار الرجعية، خاصة الدينية منها، عنيدة، وتستمر في الوجود مدة طويلة، بعد انمحاء الظروف التاريخية التي خلقتها.

هناك سؤالان ينطرحان، وهما، ماهي أسباب هاته الاستقلالية النسبية للإيديولوجيا؟ وكيف نفسر هذه الخصوصية في تطور الوعي الاجتماعي؟

هناك سبب معرفي يمس طبيعة الوعي واستقلاليته النسبية بالنسبة للمادة، فبمضمونه، فالوعي بشكل عام يعكس الكائن، أي العالم المادي، والوعي الاجتماعي هو انعكاس للوجود الاجتماعي، أي للحياة المادية لمجتمع في مرحلة تاريخية محددة، وفي الحالتين معا، فالانعكاس ليس فعلا سلبيا ميتافيزيقيا، بل هو ذو طابع ديالكتيكي معقد، وبفضل هذا الديالكتيك يكتسب الوعي بشكل لا مناص منه طابعا نشيطا.

إن الوعي الإنساني، هو قبل كل شيء نتاج التطور التاريخي للمجتمع، وفي أصل هذا التطور، نجد الممارسة، النشاط المادي والمنتج للناس المتوجه نحو تطوير القوى المنتجة، وتدجين الطبيعة، واستعمالها لغايات نافعة للإنسان.

لقد شرح ماركس في موضوعاته حول فيورياخ، الطابع النشيط للوعي بالنشاط الإنساني.

إن الوعي بمضمونه، يأتي في الدرجة الثانية، لأنه انعكاس للواقع المادي، لكن الوعي لا يمكن اختزاله في مجرد صورة للواقع يحاول معرفتها ليجعلها مفهومة، وكذلك اختراق جوهرها. بسبب هذا المظهر النشيط للوعي، فالانعكاس الإيديولوجي للقاعدة الاقتصادية للمجتمع، فهو إلى حد ما مستقل تجاه هذه الأخيرة.

﴾ إن خصوصية الوعي نفسها، وطابعها الديالكتيكي والنشيط، هما السبب الأساسي للاستقلال النسبي للإيديولوجيا، وينضاف إلى هذا كذلك، في مراحل من التطور الاجتماعي، تأثير الفصل بين العمل الفكري والعمل اليدوي.

→ بفضل هذا الفصل بين العمل اليدوي والعمل الفكري، انفصل الإنتاج الفكري عن الإنتاج المادي، مما أعطى وهم الاستقلال التام للأول عن الثاني.

→ إن الانتقال من المجتمع الطبقي إلى مجتمع بلا طبقات، لا يحذف الاستقلال النسبي للإيديولوجيا، الذي يظل قانونا خاصا بالسيرورة الإيديولوجية، لكن في المجتمع الشيوعي، فهذا الاستقلال النسبي يبعد عن الأشكال الوحشية الناتجة عن التعارض بين العمل اليدوي والعمل الفكري وضيق الأفق الطبقي كذلك، ففي المجتمع الشيوعي، فإن الطابع النشيط للأفكار والوعي، وتأثيرهما على كل مظاهر الحياة الاجتماعية ينمو بشكل كبير.

يقول انجلز، في محاولة لشرح جوهر التصور المادي للتاريخ:

"إن التطور السياسي والقانوني والفلسفي، والديني والفني ... يستند إلى التطور الاقتصادي، لكن يتفاعل مع بعضه البعض،

وكذلك على القاعدة الاقتصادية، إن الأمر ليس هكذا، لأن الوضع الاقتصادي هو السبب، ولأنه هو وحده النشيط، وكل الباقي

فعل سلبي، بل هناك على العكس فعل متبادل، استنادا لقاعدة الضرورة الاقتصادية، التي تنتصر دائما في آخر التحليل".

#### → قال ماركس:

" لا يمكن القضاء على القوة المادية إلا بالقوة المادية، لكن النظرية تتحول هي الأخرى إلى قوة مادية متى استبدت بألباب الجماهير".

\* يتهم خصوم الماركسية هذه الأخيرة بكونها جبرية اقتصادية، تنكر حسب زعمهم الأسباب الإيديولوجية، أو المحركات الإيديولوجية للنشاط الإنساني، وهذا الادعاء لا علاقة له بالنظرية العلمية الثورية للماركسية.

#### قول انجلز:

"كل ما يحرك الناس لابد أن يمر بالضرورة عبر دماغهم".

→ إن الناس، وهم يصنعون التاريخ، يستلهمون ذلك من أسباب إيديولوجية محددة، إن هذه الأهداف، التي يتم تبنيها بوعي، تمثل المحركات الإيديولوجية للنشاط الإنساني، والأسباب

والأهداف مشروطان معا تاريخيا، أي أن لهما هذا التكيف، فإن المحركات الإيديولوجية للنشاط التاريخي تلعب دورا محركا ومعبئا هائلا.

#### 5) أشكال الوعي الاجتماعي وطابعها الخاص

إن الأشكال الأساسية للوعي الاجتماعي، هي الإيديولوجيا السياسية والقانون والأخلاق والدين والفن والفلسفة. إن كل شكل من أشكال الوعي الاجتماعي، هو ثمرة ضرورات اجتماعية محددة، فظهور الملكية الخاصة والطبقات والدول مثلا، كان وراء ظهور الإيديولوجيات السياسية والقانونية.

في كل تشكيلة اقتصادية – اجتماعية، في تاريخ المجتمع، وحياته الفكرية والروحية، فإن مختلف أشكال الوعي الاجتماعي تقدم علاقة ارتباط محددة، تتميز بالنمو، بالدور المسيطر لبعض أشكال الوعي الاجتماعي بالنسبة للأخرى، التي توجد في حالة انحطاط أو جمود. ففي العصر الإقطاعي كان الدين هو الشكل الإيديولوجي المسيطر، بينما الأشكال الأخرى (فلسفة، سياسية، قانون ...) كانت تابعة لهذا الشكل، ومع ظهور الرأسمالية أصبحت السياسة والقانون في المرتبة الأولى، فالبورجوازية التي استولت على السلطة، أصبحت تعتمد سلطة الأفكار السياسية والقانونية لشرعنة سيطرتها السياسية والاقتصادية. مع الانتقال والقانونية لشرعنة سيطرتها السياسية والاقتصادية. مع الانتقال

للمجتمع الشيوعي، سيحصل تحول جدري، ليس فقط لمضمون الوعي الاجتماعي، بل كذلك لبنيته، بحيث تتراجع مجموعة من الأشكال، التي تمثل انعكاسا مشوها للواقع، وبالمقابل، تدفع الحاجيات المتزايدة للمجتمع إلى نمو قوي للعلوم، فيبدأ تلاشي بعض أشكال الوعي الاجتماعي، كالوعي السياسي والقانوني، بينما يتسع حقل الفعل الأخلاقي، حتى يصبح المنظم الرئيسي للعلاقات الإنسانية، وستساعد ظروف الحياة في المجتمع الشيوعي، على تفتح الفنون والفلسفة.

→ تتميز كل أشكال الوعي الاجتماعي، بالإضافة إلى كونها تعكس مظاهر مختلفة للوجود الاجتماعي، وبطرق خاصة لكل منها، تعكس كذلك في اللغة الخاصة بها، جانبا محددا من الوجود الاجتماعي.

→ الإيديولوجية السياسية → العلاقات بين مختلف الطبقات الاجتماعية.

→ الأخلاق → العلاقات بين الناس، وعلاقة الفرد تجاه الجماعة والمجتمع.

إن أنماط هذا الانعكاس تختلف من شكل إلى آخر.

 $\rightarrow$  الفلسفة، العلم  $\rightarrow$  تعكس موضوعها في شكل مفاهيم منطقية وقوانين ونظريات.

ightarrow الفن ightarrow انعكاس فني مصور للواقع.

→ الأخلاق والقانون → تعكس في شكل قوانين وقواعد سلوك الناس.

هناك عنصر اختلاف بين مختلف أشكال الوعي الاجتماعي، ويقوم حول دورها في حياة المجتمع والوظائف التي تقوم بها.

→ الأفكار السياسية → تقوم بترميز الأهداف الاجتماعية لمختلف الطبقات وتنظيم نشاط المؤسسات والمنظمات السياسية.

→ الأخلاق → تقوم بتشكيل الصفات الأخلاقية للناس،
 وبمساعدة قواعد محددة، تنظم العلاقات المتبادلة بين الناس.

→ الأشكال الإيديولوجية → تتميز بطابع الروابط التي تقيمها مع القاعدة الاقتصادية للمجتمع، فالإيديولوجيا والتصورات القانونية، هي أقرب للقاعدة الاقتصادية من أشكال الوعي الأخرى، فهي تعكس بهذا القدر أو ذاك، مباشرة علاقات الإنتاج، وهي أشكال تتشكل مباشرة عن طريق الاقتصاد، ولذلك سماها انجلز، إيديولوجيات الدرجة الأولى.

→ الفلسفة والفن → تعكس القاعدة الاقتصادية بواسطة حلقات وسطى، وبالدرجة الأولى، عن طريق الإيديولوجيا السياسية، وفي

زي سياسي، وتوجد هذه الميادين الإيديولوجية بعيدة عن القاعدة الاقتصادية، وبعبارة انجلز: تحلق عاليا في الأجواء.

□ إن هذه الفوارق بين مختلف أشكال الوعي الاجتماعي نسبية، بمعنى أنه لا يوجد أي شكل منها مفصول عن الأشكال الأخرى، فكلها توجد في ترابط وتفاعل ضيق فيما بينها.

#### أ – الإيديولوجية السياسية:

→ الإيديولوجية السياسية → لأنها الأكثر ارتباطا بالحياة الاقتصادية للمجتمع، فهي تلعب، ضمن هذا التفاعل بين مختلف الأشكال دورا محددا.

يحدد لينين السياسة باعتبارها تعبيرا مركزا ومكثفا للاقتصاد، تعميما له وتتويجا له أيضا. في سياستها، كل طبقة اجتماعية تعبر بشكل مباشر عن مصالحها الطبقية والمحددة.

إن السياسة تعكس العلاقات بين طبقات المجتمع، إنها تعكس اقتصاد المجتمع عبر منظور العلاقات الطبقية، التي تتقدم كصراع بين الطبقات في المجتمعات المقسمة إلى طبقات متعددة. إن السياسة تتضمن الأهداف والمهام، التي تقدمها

الطبقات، التي تناضل من أجل مصالحها، وكذلك الطرق والوسائل، التي تستعملها للتعبير والدفاع عن تلك المصالح.

إن إحدى المشاكل الأساسية للسياسة، هو موقف الطبقات تجاه الدولة ومهامها وأشكال نشاطها، والسياسة تتضمن أيضا العلاقات بين الدول والأمم، وتنتمي العلاقات بين الدول إلى مجال السياسة الخارجية، التي تنفصل عن السياسة الداخلية للطبقة السائدة، التي تشكل استمرارا لها.

وبالمعنى الواسع، فالسياسة هي ميدان العلاقات بين الطبقات والأمم والدول، فهي ميدان الصراع الطبقي، من أجل قيادة المجتمع، من أجل سلطة الدولة وتوجيه عملها.

من هذا المنظور، فالسياسة هي مجموع العلاقات والأنشطة السياسية، لكن هناك دور كبير تقوم به الإيديولوجيا السياسية، أي النظريات والتصورات السياسية، التي تدعم إيديولوجيا المصالح والطموحات والأهداف لدى هذه الطبقة الاجتماعية أو تلك.

→ الإيديولوجيا السياسية، هي نظام أفكار طبقة معينة، تعبر عن مواقف هذه الطبقة تجاه طبقات أخرى، ومن تم كذلك، تصوراتها للصراع الطبقي وللثورة، وللنظام الاجتماعي والسياسي، وافكارها حول العلاقات بين الأمم والدول وحول قضايا الحرب والسلم.

 → تجد الإيديولوجيا السياسية تعبيرها في دساتير الدول وبرامج وشعارات الأحزاب والمنظمات السياسية الأخرى.

→ هناك إيديولوجيتان أساسيتان، متعارضتان بشكل صدامي وعدائي: الماركسية ـ اللينينية المعبرة عن مصالح الطبقة العاملة وعموم الكادحين، والإيديولوجيا السياسية للبورجوازية المعبرة عن مصالح المستغلين (كسر الغين).

→ إن الإيديولوجيا السياسية للماركسية ـ اللينينية لها طابع علمي وثوري متسق.

في المجتمع، توجد كذلك الإيديولوجيا السياسية للبورجوازية الصغيرة، التي تعكس المصالح، والمواقف السياسية للبورجوازية الصغيرة وللفلاحين والحرفيين، هذه الإيديولوجيا تعكس الوضع الغامض لهذه الفئات الاجتماعية، التي هي من جهة، مناهضة للاستغلال، وتعبر عن اتجاهات ثورية وديموقراطية، ومن جهة أخرى تطمح إلى الملكية الخاصة وذات اتجاه مستمر نحو تقديم التنازلات للرجعية.

→ إن أحد أسس الإيديولوجيا السياسية الماركسية ـ اللينينية، هو مبدأ الأممية البروليتارية، ويقوم على الاعتراف بالمساواة بين مختلف الأمم، وبسيادة واستقلال وطني للشعوب.

#### ب - الإيديولوجيا القانونية:

إن الإيديولوجيا القانونية، أو الوعي القانوني، مرتبط بشكل حميمي بالسياسة، إن هذا الارتباط مشروط بعاملين:

أولا، القواعد القانونية تعكس مباشرة علاقات الإنتاج السائدة، وكما السياسة، فالإيديولوجيا القانونية مرتبطة أشد الارتباط بالبنية الاقتصادية للمجتمع، وذلك أكثر من الأشكال الإيديولوجية الأخرى.

ثانيا، قواعد القانون يتم بناؤها تحت التأثير الحاسم لسياسة الطبقة السائدة، فالمصالح الأساسية لهذه الأخيرة تجد تعبيرها تحت شكل نظام محدد من المبادئ والقوانين، مدعمة من طرف سلطة الدولة وملزمة للجميع، وفي "البيان الشيوعي" حدد ماركس وانجلز القانون، باعتباره إرادة الطبقة السائدة المحولة إلى قانون.

إن القانون هو نظام قواعد ملزمة لسلوك الناس في المجتمع يتم تثبيتها في القوانين وتعتمد على القوة الزجرية للدولة.

أما الإيديولوجيا القانونية، فهي تشكل مجموع التصورات التي تعبر عن موقف طبقة اجتماعية تجاه قانون محدد أو تشريع، وكذلك، مواقفها حول ما هو شرعي، ما هو ملزم وما هو غير ملزم.

→ إن الوعي القانوني يعكس العلاقات الاقتصادية للمجتمع في شكل مفاهيم قانونية محددة، وتصورات حول واجبات أعضاء المجتمع، وكذلك قوانين وشرعية، وبالإضافة إلى أنها تعكس العلاقات الاقتصادية، فهي تعكس العلاقات السياسية والعائلية.

تقدم الإيديولوجيا القانونية طابعا معياريا منظما لسلوك الناس في المجتمع، ومقولاتها الأساسية هي الحقوق والواجبات، القانون والشرعية، العدالة وجهاز العدالة، المخالفات والعقوبات.

→ إن نظريات القانون، كما هو الحال بالنسبة للنظريات السياسية، لها طابع طبقي متميز، ففي مجتمع تصادمي، فالتصورات القانونية لطبقة في السلطة، تبرر شرعية العلاقات الاجتماعية، القائمة على نوع من الملكية المحددة. ففي المجتمع الرأسمالي، فإن القانون يدافع عن مصالح الملكية الخاصة الرأسمالية، والديموقراطية في هذا المجتمع لا تتجاوز حدود مساواة شكلية أمام القانون، إنه أحد أشكال دكتاتورية البورجوازية.

### ج - الأخلاق:

ما يميز الأخلاق بشكل خاص، باعتبارها شكلا إيديولوجيا، هو كونها تعكس تلك المظاهر من الوجود الاجتماعي، التي تمس

العلاقات بين الناس، علاقة الفرد بطبقته، وبباقي الطبقات، وبالجماعة ومجموع المجتمع.

→ إن الأخلاق، باعتبارها شكلا من الوعي الاجتماعي، تمثل مجموعة من القواعد والمعايير لسلوك الناس، مشتركة بالنسبة لطبقة اجتماعية محددة، أو لكل المجتمع، لها أصل تاريخي، وتتعرض لتغييرات مستمرة.

وتعتمد الأخلاق، لتقدير سلوك الناس، على مقولات الشر والخير، العدل والظلم، الشرف والرذيلة، الوعي، الواجب ... وتشترك الأخلاق في نقط مشتركة مع القانون، فكلاهما ينظم سلوك الناس في المجتمع، لكن على خلاف معايير القانون، التي تفرضها سلطة الدولة، فالأخلاق تعتمد على قوة الرأي العام والاقتناع الداخلي، وعلى العادات والتربية.

→ وإذا كان القانون هو إرادة الطبقة السائدة، أي إرادة تم تحويلها إلى قانون، فالأخلاق هي إرادة الطبقة التي أصبحت رأيا عاما.

→ قبل الماركسية، لم تكن هناك أي نظرية علمية حول أصل وجوهر الأخلاق. إن الماركسية هي أول من بين المصدر الحقيقي وطابعها الطبقي والتاريخي، ومكانتها ودورها في تطور المجتمع. لقد حطمت الماركسية كل النظريات، التي ترى أن أصل الأخلاق في التوجيهات الإلهية أو في الفكرة المطلقة، أو في الطبيعة الخالدة

للإنسان. لقد بينت الماركسية علميا، أن مصدر التصورات الأخلاقية هو المجتمع الإنساني، الذي يتشكل أساسا من العلاقات الاقتصادية، يقول انجلز:

# "كل نظرية لأخلاق الماضي، هي في آخر التحليل نتاج وضع اقتصادي لمجتمع في زمانه" (أنتي دوهرينغ).

أمثلة: في المجتمع العبودي، فإن الأخلاق، هي أخلاق مالكي العبيد، وفي المجتمع الإقطاعي، فهي أخلاق الإقطاعيين، وفي المجتمع البورجوازي، فهي أخلاق الرأسماليين. وفي مقابل هاته الأخلاق، تنشأ المعايير والمبادئ الأخلاقية للعبيد والأقنان والبروليتاريين. فالأخلاق البورجوازية تكرس الملكية الخاصة والاستغلال، ومبادئها فردانية بشكل أساسي (الإنسان هو ذئب لأخيه الإنسان) وهذا هو جوهر نشاط وأخلاق الرأسماليين. أما بالنسبة للبروليتاريا، فهناك الأخلاق الشيوعية، ويقول لينين:

"إن أخلاقنا تقوم على منطق مصالح النضال الطبقي للبروليتاريا".

→ بدورها التاريخي، فالبروليتاريا مطالبة بتجديد الإنسانية على المستوى الأخلاقي، عن طريق بناء مبادئ جديدة للحياة، قائمة على التعاون والمساعدة، وإرجاع ثمرات العمل إلى الإنسان، وفرحة الإبداع، وحرية تطوير المواهب والنضال ضد الاضطهاد والأخوة بين الشعوب ...

→ إن الأخلاق الشيوعية تتطلب التطبيق المتسق للمبادئ الجماعية، والتعاون الأخوي والصداقة، والأخوة بين الشعوب، وعدم التسامح، مع من يخرق مصالح المجتمع، ومع اعداء الاشتراكية والشيوعية، وقضية السلم وحرية الشعوب.

#### د – الدين:

ككل أشكال الوعي الاجتماعي، فالدين هو انعكاس للوجود الاجتماعي، لكن ما يميزه بشك خاص، هو أنه يقدم انعكاسا خياليا وهميا مشوها للواقع، انعكاس، الذي، في سياقه، كما يقول انجلز: "القوى الأرضية تأخذ شكل ما فوق أرضية" (أنتي دوهرينغ).

→ الدين هو مجموعة محددة من الأفكار مشوهة للواقع، أي نظام من الأساطير الدينية، وباعتباره شكلا خاصا من أشكال الوعي الاجتماعي، يقوم الدين بوظيفة اجتماعية خاصة.

→ إن القولة المأثورة لماركس: "الدين أفيون الشعوب"، تعتبر من طرف لينين، كحجر الزاوية لكل مواقف الماركسية من المسألة الدينية.

فبادعائه السلطة الوحيدة المؤهلة لحل المشاكل الفلسفية والأخلاقية، فالدين يتيه المؤمنين، ويترجم بشكل مغلوط

مصالحهم وحاجياتهم الحيوية، فدوغما القدرية تعرقل نشاطهم وتربطهم بمثل وأهداف وهمية.

وبخلاف الفكر المثالي، الذي يدعي أن الدين أبدي، بينت الماركسية، على أنه ظاهرة تاريخية، وكشكل من أشكال الوعي الاجتماعي، يتوفر الدين على استقلالية نسبية لا بأس بها، بما يفسر طابعه المحافظ، الذي يجعل المعتقدات والأساطير الدينية تستمر في البقاء، حتى بعد انتهاء الظروف الاجتماعية التي ولدتها، ومع ذلك، فالدين يخضع بدوره لقوانين التاريخ، فما يسمى الديانات العالمية الكبرى كاليهودية والمسيحية والبوذية والإسلام، هي نتاج ظروف تاريخية محددة، وتتغير بارتباط مع تطور العلاقات الاجتماعية.

→ الدين في جوهره ضد العلم، فهو يستعمل تصورات، مثل الوحي الإلاهي، ويقدم تفسيرا مشوها للظواهر الطبيعية والاجتماعية، لذلك عرف التاريخ صراعا مستمرا بين العلم والدين، فالكنيسة مثلا، وخلال قرون، حاولت خنق العلم واضطهاد العلماء ومنع نشر الأفكار التقدمية، وإحراق الكتب، ورمي العلماء في السجون وإحراقهم ... وتحاول المسيحية اليوم مثلا، نشر فكرة الانسجام بين الإيمان والعقل، بين الدين والعلم، ومحاولات المصالحة بين الدين والعلم، هدفها الرجوع إلى الوراء

بالمعرفة العلمية، واكتساب فضاءات جديدة للإيمان، وإخضاع مكتسبات العلم الحديث للإيمان.

→ إن القضاء على الدين يمر بالضرورة عبر تصفية العلاقات الاجتماعية الاستغلالية، التي هي مصدر الإيمان بوجود قوى ما فوق الطبيعة.

→ يقول لينين:

"إن وحدة هذا النضال الثوري حقا للطبقة المضطهدة، المكافحة من أجل خلق جنة على الأرض، يهمنا أكثر من وحدة الرأي للبروليتاريين حول الجنة في السماء"، (لينين، المجلد العاشر).

إن النضال ضد الدين، ليس هدفا في حد ذاته، بل يجب ربطه بالمهمة الرئيسية، وهي النضال من أجل الديموقراطية والاشتراكية، ويجب أن تبقى دائما، مصالح النضال السياسي في المقدمة، لأنه من الانتصارات في هذا النضال ضد الامبريالية، يرتبط بشكل نهائي، تحرر العمال تجاه الأحكام الدينية المسبقة.

→ يوم 23 يناير 1918 أصدر لينين مرسوما حول الفصل بين الكنيسة والدولة، والمدرسة والكنيسة، وقد منع هذا المرسوم كل حد من حريات الوعي، كما وضع المساواة بين مختلف الديانات، وكذلك حق المواطنين في عدم الانتماء إلى أي ديانة، بل واختيار الإلحاد، وضمن المرسوم حرية ممارسة الشعائر الدينية، شرط ألا

تقوم بالمس بالأمن العام، وألا تمس بالحقوق وبصحة المواطنين، لقد أصبحت المدرسة لائكية، وتحررت من كل تأثير من طرف الكنيسة.

#### ه – الفن:

يتميز الفن، كشكل من أشكال الوعي الاجتماعي، بموضوعه، وبطريقة عكسه للواقع، إن ميزة الفن الخاصة، هي اهتمامه بالإنسان الاجتماعي، وبمستقبله، وبالطابع والعلاقات مع الواقع وعالمه الفكري، وأفعاله وأفكاره وعواطفه. إن أصالة الفن تتجلى في إعطائه انعكاسا مصورا للواقع وليس انعكاسا علميا ومنطقيا، بينما العلم والفلسفة، يمثلان ظواهر الطبيعة والمجتمع، بواسطة مقولات منطقية ومفاهيم مجردة، أما الفن فيقدم ذلك عبر الصور الأدبية أو المسرحية أو الموسيقية، في شكل حسي ملموس، تكشف لنا جوهر الواقع، ومضمون العلاقات الاجتماعية وحقيقة الحماة

إن الصور التي يخلقها الفن هي فردية وملموسة، لكنها تكشف الميزات العامة لمجموعة من الظواهر، تقوم بتعميم الواقع تحت شكل فني، مظهرة ما هو عام، عبر الملموس الحي الخاص، مثلا النماذج التي تقدمها شخصيات الأدب الروائي عند نجيب

محفوظ، أو كذلك شخصية بافيل في رواية غوركي "الأم" التي تعكس الخطوط النمطية للبروليتاريا الثورية الروسية.

→ إن الوظيفة الاجتماعية للفن، هي قبل كل شيء، تأثيرها على حياة المجتمع، عن طريق القيمة التربوية، كما يقول تشيرنيشيفسكي: "الفن دفتر الحياة" (ملخص حياة). إن القوة الإيديولوجية والتربوية هنا، تكمن في التأثير العاطفي على الوعي الإنساني.

→ يحاول التصور المثالي فصل الفن عن الواقع الاجتماعي، الذي يغرس فيه جدوره، معتبرا الإبداعات تعبيرا عن فكرة خالدة أو مطلقة للجمال، أو للأنا الفردية، بعيدا عن الظروف الاجتماعية، فحسب هذه النظرة، ليس هناك فن حقيقي إلا في الفن من أجل الفن، وخلافا لهذه النظرة، فتاريخ الفن يشهد على أن تطوره مرتبط أشد الارتباط بالحياة الاجتماعية، وأنه انعكاس للظروف والحياة الاجتماعية.

ولكونه، أي الفن، أبعد عن القاعدة الاقتصادية للمجتمع، مقارنة بأشكال الوعي الاجتماعي الأخرى، فإنه يتميز بدور خاص مرتبط بعوامل مثل التقاليد الفنية وحالة الحياة السياسية والفكرية للمجتمع، ويقدم لنا التاريخ أمثلة عن دول متخلفة اقتصاديا استطاع فيها الفن أن يعرف تفتحا كبيرا خلافا لدول متقدمة

اقتصاديا، حيث يعاني من الجمود، مما يعني أن الفن في المجتمعات الطبقية يعكس بشكل مباشر، ليس مستوى تطور الإنتاج، بل مجموع الظروف الاجتماعية وتطور الصراع الطبقي.

→ الفن الحقيقي هو دائما فن شعبي، ذلك أن الأعمال الكبرى في الأدب والموسيقى والفنون الجميلة ارتبطت بطموحات الشعب.

يقول مكسيم غوركي:

"ليس الشعب فقط، القوة التي تخلق القيم المادية، بل هو كذلك المصدر الوحيد الذي لا ينضب للقيم الروحية، إنه الفيلسوف الأول، والشاعر الأول في الزمان، والأول من أجل الجمال وعبقرية العمل، فهو الذي خلق كل القصائد الكبرى، وكل تراجيديات الأرض وأكبرها جميعا تاريخ الثقافة العالمية"

(مكسيم غوركي، المجلد 24).

لقد عكس كتاب مرموقون في الأدب العالمي، مثل بوشكين وغوغول وستاندال وهوغو وديكنز وتولستوي ... في أعمالهم، وأحيانا دون أن يدركوا ذلك، عواطف الحالة الوجدانية وآمال الفئات الدنيا للمجتمع. لقد استعار الفنانون الكبار الذين كانوا في الماضي من كنوز الإبداع الشعبي، واستلهموا المشاريع والأفكار وإيمان قوى الخير بالانتصار، وكل هذه الأشياء مرتبطة بالجماهير الشعبية.

﴾ في المجتمع الطبقي، فالفن، الذي هو شكل من أشكال الإيديولوجيا، له طابع طبقي، وفي نفس الوقت، يحافظ على مجموعة من المميزات الإنسانية الكونية. وسواء وعى الكتاب أو الفنانون ذلك، أو لم يعوه، فهم دائما يعبرون عن مصالح هذه الطبقة أو تلك، وعن تصور للعالم، وعن آرائهم، وعن موقفهم تجاه الواقع، وكما قال غوركي، فالأديب هو عيون وآذان وصوت طبقة. ففي مجتمع طبقي، لا يمكن للفن أن يكون مستقلا عن السياسة، ولا يمكن أن يكون خارج نظام العلاقات الطبقية.

27 פדית 2017

(العلقة 5

الموضوعة السابعة:

نظرية الثورة الاجتماعية والسيرورة التاريخية الثورية

من أكثر المفاهيم عرضة للتشويه والتزييف والتحريف مفهوم الثورة الاجتماعية، حتى أصبحت كل حركة اجتماعية أو تاريخية أو سياسية أو ثقافية على بساطة أو محدودية مطالبها يطلق عليها ثورة. وبعد سقوط الاتحاد السوفياتي رأس المنظومة التحريفية العالمية، ومعه دول أوروبا الشرقية التابعة، وبعد تراجع المد الثوري العالمي (سقوط الثورة الصينية في أيدي التحريفيين، تراجع حركات التحرر الوطني عبر العالم، واستنزاف الطبقة العاملة العالمية وضرب أدواتها الطبقية ...) أطلقت الامبريالية العالمية إحدى أكبر حملاتها المعادية للشيوعية، موظفة الآلاف من المرتزقة، من الكتاب والأكاديميين ورجال الإعلام كلاب حراسة النظام الامبريالي العالمي، وبطبيعة الحال، قام كل هؤلاء وهم مدعمون من طرف أحزاب بورجوازية وساسة ذوي ثقافة رديئة ومنحطة ومحدودة، بالهجوم على أهم المفاهيم، التي يقوم عليها الفكر الماركسي – اللينيني الثوري، في محاولة يائسة لتجريم

كل منظور ثوري مناهض للرأسمالية ومعادي للإمبريالية وداعم لبناء نظام الاشتراكية، وهكذا، استغل الإمبرياليون جماعة من المرتدين والخونة ليطلقوا حملاتهم السوداء والمضللة تحت شعار "الشيوعية تساوي 100 مليون قتيل"، وذلك عبر خلط الأوراق وتشويه الحقائق التاريخية وتغليط الشعوب التي يتمكن منها هذا الخطاب، فالبلشفية، حسبهم، هي المسؤولة عن الحرب الأهلية في روسيا، وهي المسؤولة عن الحرب العالمية الثانية ، وأن الحزب الشيوعي الصيني مسؤول عن الحرب الأهلية الأولى والثانية، وعن الحرب ضد اليابان، والشيوعيون هم المسؤولون عن الحرب في كوريا والفيتنام، وأضاف مرتزقة الإعلام الغربي إلى لائحة أرقام من أسموهم ضحايا الشيوعية، كل من سقطوا نتيجة الكوارث الطبيعية (فيضانات، زلازل، سوء تغذية، مجاعات ...) وكل بلاءات العالم فالشيوعية هي المسؤولة عنها، هي عدوة البشرية، التي قامت بتخريب الطبيعة والمجتمع. هكذا لم يجد المرتزقة غضاضة في الدعوة إلى تجريم الشيوعية، واعتبار أعمالها المرتكبة، جرائم ضد الإنسانية إسوة بجرائم النازية والفاشية.

في ظل هذا التشويه المرتكب والدعاية المضللة، أصبح مفهوم الثورة مشبوها وبعبعا مخيفا، وانطلت اللعبة وتمكنت الحيلة من عقول مثقفي البورجوازية الصغيرة، الذين سرعان ما اصطفوا إلى

جانب الفكر البورجوازي الامبريالي مدعين أن زمن الثورات قد انتهى، وأن الإصلاح هو الطريق الصحيح والمنهج القويم للتغيير والتحرر، وأصبح كل ثوري في منظورهم مجرد ماضوي أو طوباوي يحلم بالعودة إلى ماضي ذهبي، لم يكن كذلك حزب زعمهم، فسلام على الإصلاحي والإصلاحيين فقد نصفهم التاريخ أخيرا، التاريخ بمنظورهم طبعا، منظور الأيادي المرتعشة و الضمائر الميتة والقلوب المحبطة المنهارة المسقية بإيديولوجية الهزيمة وعقلية الانكسار.

إن مفهوم الثورة يجب أن يوضح بطريقة علمية وتحليل رصين، لا يترك لغربان الموت أي فرصة للإفلات من الفضيحة، والظهور بمظهر الضعف والهزيمة، فالحقيقة دائما ثورية لا يصمد أمامها خطاب الخونة والمرتدين والمرتزقة، والماسكون العصا من الوسط، الذين يتجهون أينما اتجهت الرياح، مثل دوارة الرياح (جيروويت).

إن الحق في الثورة أقدس حق من حقوق الشعوب ضد الاستغلال والاضطهاد والاستعباد والاستبداد والاستلاب الاقتصادي والثقافي والفكري، هذا الأخير الذي يجد فيه المرتزقة ذواتهم معتقدين أنهم يسبحون في ملكوت الحرية، غير مدركين لقيود الاستلاب المحيطة بهم، فرحين بما عندهم، يأكلون من موائد أسيادهم، وينفثون سمومهم على الشعوب وعلى الكادحين ومنتجي الخيرات

المادية والثقافية الحقيقيين. إن تاريخ المجتمعات لم يكن سوى تاريخ صراع الطبقات، وسيبقى كذلك مهما وظفوا من ترسانة في التضليل والتزييف، ومهما فعلوا فلن يخفوا الشمس بالغربال، لقد دقت ساعة الحقيقة وسقط النقاب عن الوجوه الغادرة وظهر وجه الإمبرياليين سافرا، وعادت راية الشيوعية الحمراء ترفرف من جديد، إن العالم في حاجة إلى الشيوعية وإلى الثورة كبديل للهمجية والبربرية الامبريالية.

### 1) الماركسية ومفهوم الثورة الاجتماعية

إن القاعدة الاقتصادية للثورة الاجتماعية، تجد سببها في الصراع الدائر بين علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج.

حسب التعريف الكلاسيكي عند كارل ماركس، تكون هذه المرحلة أو تلك ناضجة لقيام الثورة الاجتماعية، عندما تصبح علاقات الإنتاج شكلا يعيق تطور قوى الإنتاج، أي شكلا معرقلا لتطورها. إن هذا التناقض والنزاع يجد حله في الثورة الاجتماعية التي تحطم علاقات الإنتاج القديمة، وتعوضها بأخرى جديدة.

إن الثورة الاجتماعية بمعناها الواسع، تمثل منعطفا مفاجئا في كل نظام العلاقات الاجتماعية، التي تشكل تشكيلة اقتصادية – اجتماعية محددة، فهي بهذا المعنى، تمس على حد سواء القاعدة

الاقتصادية للمجتمع وكذلك بنيته الفوقية. فالثورة الاجتماعية كنتاج للنزاع بين القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج لا تتسبب فقط في زلزال داخل النظام الاقتصادي للمجتمع، بل تساهم كذلك في انهيار النظام القديم للعلاقات السياسية والقانونية، وفي مقدمتها المؤسسات القانونية والسياسية، وتخلق نظاما بديلا له.

ولأن السلطة السياسية عامل حاسم وأولي، يضمن تحويل مجموع نظام العلاقات الاجتماعية للبنية التحتية والبنية الفوقية، فإن المسألة الأساسية لكل ثورة هي مسألة السلطة. يقول لينين:

"إن انتقال السلطة من طبقة إلى أخرى، هو الطابع الأول، الرئيسي، الأساسي للثورة، وذلك بالمعنى الضيق العلمي، كما بالمعنى السياسي والعملي للكلمة"

(لينين، الأعمال الكاملة، باريس - موسكو، المجلد 24، ص 34).

إن أشكال هذا الانتقال، ودرجة العنف الثوري، المؤدي إلى الاستيلاء على السلطة مرتبط بالظروف التاريخية الملموسة. ولكي تقوم ثورة، وأن تنتصر، فلا يكفي أن يكون هناك نزاع أو تناقض بين القوى المنتجة الجديدة وعلاقات الإنتاج القديمة، بمعنى آخر، فالقاعدة الاقتصادية للثورة الاجتماعية، لا تكفي لوحدها، فلابد من تركيب وتقاطع بين العوامل الموضوعية والعوامل الذاتية. فالجماهير الشعبية والكادحة لا تكون جاهزة للقضاء على

النظام القديم، إلا عندما يصبح الاضطهاد الطبقي لديها قد بلغ حدا أصبح لا يحتمل. كما أن الفوضى والغموض لا يظهران في صفوف الطبقة المسيطرة، إلا عندما تتخبط في تناقضات اقتصادية وسياسية تعجز عن حلها، وعندما، نتيجة أسباب موضوعية، تهتز قوتها الاقتصادية والسياسية بشكل جدي.

→ هذان الظرفان أو العاملان يظهران في استقلال عن إرادة الناس، والإيديولوجيين، والأحزاب السياسية، والطبقات. وبشكل عام، لا يظهران إلا عندما يصل الصراع بين علاقات الإنتاج المتقادمة والقوى المنتجة الجديدة، وكذا التناقضات الاجتماعية التي تعكس هذا النزاع، إلى مداه الأقصى.

→ إن هاته الأزمة الوطنية، التي تمس على حد سواء، المستغلين والمستغلين، وتمس الاقتصاد والسياسة كذلك، هو ما أسماه لينين ب "الظرف الثوري".

يشير لينين إلى أن الوضع الثوري يتميز بثلاث مؤشرات رئيسية، وهي:

" 1 – الاستحالة بالنسبة للطبقات المسيطرة، الإبقاء على سيطرتها في شكل لا متغير، أزمة في "القمة"، أزمة سياسة الطبقة المسيطرة، التي تخلق فجوة عن طريقها يجد غضب واستنكار الطبقات المضطهدة طريقه. من أجل أن تنفجر الثورة لا يكفي،

بشكل عادي، "ألا تريد القاعدة" أن تعيش كما في السابق، ولكن يهم أكثر، "أن القمة لا تستطيع ذلك".

2- تفاقم البؤس والمحن بشكل أكثر من المعتاد، بالنسبة للطبقات المضطهدة.

3- تزايد ملموس، للأسباب المذكورة أعلاه، لنشاط الجماهير، التي كانت، تقبل أن تنهب في هدوء، في الظروف "السلمية"، والتي، في الظروف العاصفة، تكون مدفوعة تحت وطأة الأزمة عامة، بل ومن طرف "القمة" نفسها، نحو عمل تاريخي مستقل" (لينين، الأعمال الكاملة، باريس – موسكو، المجلد 21، ص216، ص217).

→ إن الثورة السياسية مستحيلة بدون وضع ثوري، كما أن الثورة لا تولد بشكل إلزامي من كل وضع ثوري، فحسب لينين، يجب أن تضاف كذلك الظروف الذاتية إلى الظروف الموضوعية، بمعنى آخر، توفر القدرة لدى الطبقة الثورية على إنجاز الأعمال الثورية الجماهيرية.

→ يتضمن العامل الذاتي كلا من حالة الوعي والتنظيم لدى الجماهير، وكذا توفر قيادة لهذه الجماهير من طرف تنظيم سياسي. وبتحميس من طرف الأفكار الثورية تقوم الطبقات الثورية بقلب النظام السياسي الرجعي، وبمساعدة النظام الجديد،

تقوم بإزالة علاقات الإنتاج القديمة وإنجاز أخرى جديدة أكثر تقدما.

→ إن سيرورة تحول تشكيلة اجتماعية - اقتصادية لا يتوقف عند هذا الحد، ذلك أن النظام الاجتماعي الجديد يلزمه الوصول إلى مستوى إنتاجية أعلى لا يصلها النظام القديم، بمعنى آخر، توفر قاعدة مادية وتقنية مناسبة، يجب خلقها، وعلى قاعدتها تقف علاقات الإنتاج الجديدة. إن هذا الانقلاب في القوى المنتجة، كان شرطا أساسيا في انتقال رأسمالية المانيفاكتورة إلى الرأسمالية الصناعية، ففي ختام الثورة الصناعية تعزز نمط الإنتاج الرأسمالي ومعه التشكيلة الرأسمالية، التي انتصرت نهائيا على تشكيلة الإقطاعية.

→ إن الثورة الاجتماعية، هي قانون ضروري لتطور المجتمعات الطبقية، إنها قانون الانتقال من التشكيلة القديمة إلى التشكيلة الجديدة. إن نهاية النظام القديم، وولادة النظام الجديد، تمثلان منعطفا مفاجئا في التطور التاريخي للإنسانية. إنه انقلاب يمتد إلى العديد من الدول، ويغطي مرحلة تطول بهذا القدر أو ذاك، من الهزات الثورية.

→ أثبت التاريخ وجود ثلاثة أنواع من الثورات، لكل منها تنوع كبير، فهكذا هناك ثورات توجه ضربة رئيسية وحاسمة لتشكيلة

اجتماعية في حالة احتضار، وهناك ثورات تقوم على تهيئ التشكيلة الاجتماعية للثورة من النوع الأول، وهناك ثورات تقوم بدفع الأمور إلى نهايتها المنطقية.

→ هناك من الباحثين والعلماء البورجوازيين، الذين رغم عدم إنكارهم لوجود ثورات باستمرار عبر التاريخ، لكن يجعلون من دورها الخلاق غير ذي قيمة مقارنة بالتغيرات، التي يأتي بها التطور البطىء والتدريجي للمجتمع.

إن الماركسية لا تنكر وجود مرحلة التطور التدريجي والمستمر خلال تاريخ التشكيلات الاجتماعية. ومع ذلك حسب تعريف ماركس، فإن الثورات الاجتماعية شكلت "قاطرات التاريخ" الحقيقية في المجتمعات الطبقية، حيث يقوم التناقض العدائي بين الطبقات.

يزعم الإصلاحيون أن فترات "التطور السلمي" هي الفترات التقدمية الوحيدة في تاريخ المجتمع. ويرى سوسيولوجيون بورجوازيون أن الثورات الاجتماعية مجرد حوادث عرضية ليس إلا، وليست ضرورة في الحياة الاجتماعية، بمعنى آخر بالإمكان تجاوزها إذا أبان رجال الدولة عن نوع من الذكاء والوضوح، ومن تم، فبالنسبة لهم، فإن الإصلاحات المطبقة في إطار نظام قائم هي الوسيلة الوحيدة المقبولة من أجل تحقيق التغييرات

الاجتماعية، مبرهنين هنا عن عدائهم للثورات الاجتماعية، باعتبارها انحرافا عرضيا وغير مرغوب فيه، بالمقارنة مع النهج التطوري "العادي" لتطورالنظام "الأبدي" للاستغلال.

→ في الواقع، فإن الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، هي منتوج ثانوي للثورات، فالطبقات المستغلة المسيطرة تحقق هذه الإصلاحات أو تلك، ليس لأنها مهتمة بالتقدم الإنساني كما يزعم إيديولوجيوها، بل لأنها تكون مدفوعة إلى ذلك بضغط النضال الثوري للجماهير المضطهدة، فنتائج النضال الطبقي للجماهير المضطهدة يتم تجسيدها بهذا الإصلاح الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي، التي تظل في مجموعها جزئية، لأنها لا تحل ولا يمكنها أن تحل التناقضات الأساسية بين الطبقات المتعادية. إن التصور المثالي، الذي يضع الثورات في مرتبة الظواهر العرضية في التاريخ لبعض الشعوب، تدحضه التجربة التاريخية، ذلك أن التجربة تظهر أن أي تشكيلة اقتصادية - اجتماعية لم تترك مكانها لأخرى بدون ثورة، لأن الثورة هي الشرط الذي لا مندوحة عنه لمثل هذا الانتقال.

→ يكثر الحديث دائما عن الثورات، لكن بمعاني مزيفة ومغلوطة، كما هو الحال بالنسبة لانقلابات عسكرية، التي تدعي الثورية لنفسها. ومن الملاحظ كذلك أن الصحافة والإعلام البورجوازي يطنب في الحديث ما يسميه ثورات ك "ثورة المداخيل"، و "ثورة

القادة"، بما يعني أن إيديولوجي الرأسمالية يريدون الإيحاء للجماهير، أن الرأسمالية أصبحت "ثورية". وبطبيعة الحال، فقد فقد هذا المفهوم كل معنى، وأصبحت له دلالات أخرى، وحاول أحد السوسيولوجيين يوما تحديد مفهوم للثورة قائلا:

# "إن الثورة هي تغيير للنظام الاجتماعي الشرعي القائم بوسائل تخرج عن إطار الشرعية".

إن اختزال معنى الانقلاب الثوري في هذه اللحظة، كما جاء أعلاه، يؤدي إلى نكران الفرق المبدئي بين الثورات والثورات المضادة السياسية، أي أنه يتم وضعهما في سلة واحدة.

→ من أجل تحديد دقيق لمفهوم الثورة، تجب الإشارة إلى أن النظام الشرعي يتم تصفيته خلال الثورة، بواسطة الطبقات التقدمية، ولهذه الطبقات الحق التاريخي في القيام بأعمال ثورية ضد الأنظمة السياسية الرجعية المتقادمة، وإذا كانت الثورة السياسية تعني الانتقال للسلطة إلى أيدي الطبقة الثورية، فالثورة المضادة تعني قلب السلطة السياسية للطبقة الثورية، وعودة الطبقة الرجعية إلى السلطة.

ففي صيف 1919 تم قلب السلطة السوفياتية في هنغاريا، بينما في عبد 1938 تم قلب السلطة الديموقراطية الشعبية في اسبانيا، هذان المثالان هما نموذجان للثورة المضادة، حيث استطاعت

البورجوازية الكبيرة والملاكون العقاريون لكلا البلدين، استرجاع السيطرة السياسية والاقتصادية فيهما.

لا يجب كذلك الخلط بين الثورة والثورة المضادة (باعتبارهما تغييرا للطبقات الموجودة في السلطة) والانقلاب أو الحركة الانقلابية. إن الانقلاب لا يمس أسس السيطرة السياسية والاقتصادية للطبقة السائدة، فالانقلاب من صنع جزء أو فئة من هذه الطبقة، والأمثلة عن ذلك كثيرة، نذكر منها انقلاب الفاشيين في إيطاليا سنة 1922، في ألمانيا سنة 1933 على يد النازيين، وسنة 1973 انقلاب بينوشي في الشيلي والأمثلة متعددة، إلا أنه في جميع الحالات تكون النتيجة هي استيلاء على السلطة من طرف الجزء الأكثر رجعية وشوفينية من البورجوازية أو البورجوازية الامبريالية.

→ إن طابع الثورة المحددة يظهر في طبيعة التناقضات الاجتماعية التي تقوم بحلها، وفي طابع النظام الاجتماعي والاقتصادي الذي تقوم بقلبه، وفي طبيعة النظام الذي تقوم بإنشائه.

إن القوى المحركة للثورة تتجسد في الطبقات التي تقوم بها، ومن بين هذه الطبقات توجد دائما إحداها أكثر نضجا سياسيا وأكثر قدرة على قيادة الطبقات الأخرى، حلفائها في النضال من أجل

الثورة الاجتماعية، وتأخذ هذه الطبقة على عاتقها قيادة الثورة، كما وقع في الثورة البورجوازية بالمعنى الكلاسيكي (الثورة الفرنسية سنة 1789)، وفي الثورة الاشتراكية البلشفية في روسيا في أكتوبر 1917).

#### 2) نماذج الثورات الاجتماعية الأولى في التاريخ

نبدأ بالتشكيلات الاجتماعية التي عرفت تحولات أدت إلى الانتقال من المشاعات البدائية إلى مجتمع الطبقات المتعادية. إن هذا الانتقال هو نتيجة النزاع بين القوى المنتجة الجديدة وعلاقات الإنتاج الاجتماعية العشيرية، وكان في منطلق هذه الثورات، ذلك التحول الذي عرفته القوى المنتجة، التي حققت تقدما تاريخيا مهما.

#### أ – اليونان القديمة وايطاليا:

يقدم اليونان نموذجا كلاسيكيا للانقلاب الاجتماعي، الذي سيؤدي إلى تعويض المجتمع العشيري بالمجتمع العبودي، وبالإمكان كما قال انجلز تتبع سيرورة تشكل المجتمع الطبقي وسط اتحادات العشائر، التي كانت قليلة ولا تحتل سوى أراضي

قليلة، خاصة في منطقة الأتيك. ففي القرن السابع ق.م كانت الأرستقراطية العشيرية في اليونان القديم قد أصبحت الطبقة المسيطرة لكبار ملاكي العبيد، فحسب أرسطو كانت أغلبية سكان الأتيك قد تم استعبادها من طرف أقلية، كما أن العبودية، بسبب الديون كانت قد انتشرت بشكل واسع في الدويلات اليونانية.

→ "إن النضال الثوري لأوسع فئات من سكان الديموس (الشعب) – تجار، صناع، ملاكون صغار ومتوسطون – ليس فقط ضد سيطرة الأرستقراطية بل كذلك ضد العبودية من أجل الدين والأشكال المختلفة لاستعباد أعضاء العشيرة، يشكل الخط الرئيسي للتطور التاريخي لليونان في القرن الثامن إلى السادس ق م"، (التاريخ العام، موسكو 1955، مجلد 1، ص 657).

→ إن الثورة الاجتماعية الأكثر أهمية، التي تم توجيهها ضد الملكية العقارية الكبيرة لملاكي العبيد، هي الثورة الاجتماعية التي عرفتها إيطاليا، التي ابتدأت بحركة الغراشوش (نهاية القرن الثاني ق م واستمرت حتى الحرب الاجتماعية بداية القرن الأول ق م). وحسب المؤرخين السوفيات كانت هذه الحرب الاجتماعية عبارة عن انتفاضة كبيرة للفلاحين الإيطاليين، وقد شكلت المرحلة العليا للثورة الاجتماعية، ومن نتائجها:

- استطاعة الفلاحين الإيطاليين الحصول على الأرض بنفس الشروط التي يحصل عليها الرومانيون.

- حصول الساكنة الإيطالية على المواطنة الرومانية.

ومن نتائجها كذلك، أن الثورة ساهمت في ضرب تنظيم ومؤسسات المدن - الدول، وفي نفس الوقت وجهت ضربة قوية لوضع الأرستقراطية الرومانية القديمة، بمعنى آخر وجهت ضربة قوية إلى روما نفسها.

خلال تطور المجتمع العبودي تطور في أحشائه، بالإضافة إلى التناقض العدائي وسط السكان الأحرار، ذلك التناقض العدائي الأساسي للمجتمع القديم بين العبيد وأسيادهم، لقد كان العبيد ينتمون إلى مناطق مختلفة ودول مختلفة ويتكلمون لغات مختلفة، مما كان يضعف وحدتهم، ولكن حينما ينتفضون فنضالهم يهز قواعد كل النظام الاجتماعي العبودي.

→ هناك سؤال حول العلاقات التي نشأت ما بين ثورات العبيد والحركات الثورية للفلاحين الأحرار، خاصة وأن الحركة الثورية الكبيرة قد تزامنت مع أكبر الأعمال الثورية للعبيد، ونعني بذلك انتفاضة صقلية والحرب الكبيرة للعبيد بقيادة سبارتاكوس.

→ لقد أظهر المؤرخون السوفيات ذوي الباع الكبير في هذا المجال، على أنه، رغم كون الحركتين كانت لهما نفس الأسباب

(أزمة روما كمدينة- دولة)، فقد تطورتا بشكل مستقل عن بعضهما البعض بدون أن يتقاطعا، ففي تلك المرحلة التاريخية كانت المسافة كبيرة جدا بين الإنسان الحر (بدرجة أولى مواطنو روما) والعبد، بحيث لا يمكن أن يتحالفا. فالعبيد لم يكونوا بعد قادرين على التحرر رغم كل مجهوداتهم العنيفة، ذلك أن العبيد لم يكونوا طبقة قادرة على الإتيان بنمط إنتاج أكثر تقدما، فقد كانوا لا يبحثون إلا عن تحررهم الشخصي وليس عن العبودية بشكل عام، يبحثون إلا عن تحررهم الشخصي وليس عن العبودية بشكل عام، أي تنظيم المجتمع على أسس جديدة، لم يكن بإمكانهم بلورة برنامج ثوري يسمح بلف أوسع الجماهير في تحالف ثوري.

→ لقد انفجرت ثورة سبارتاكوس في وقت كان فيه تطور النظام العبودي يتبع خطا تصاعديا، مما ساعد على العزل السياسي لثورات العبيد، وقد تغير الوضع جذريا عندما دخل النظام العبودي مرحلة الأزمة في القرن الثالث والرابع ق م.

خلال هذه المرحلة بدأ نوع من التقارب في وضع مختلف فئات السكان المستعبدة (الملاكون العقاريون الصغار، الفلاحون، من حيث وضعهم الاجتماعي والاقتصادي والقانوني، بدأوا يقتربون من العبيد). لقد كان الشخص الرئيسي في الإنتاج الزراعي في المراحل الأخيرة للإمبراطورية هو المعمر أي الملاك العقاري الصغير، الذي كان في الماضي حرا، وأصبح الآن اقتصاديا وقانونيا مرتبطا وتابعا للمك العقاري الكبير. هكذا، بجعله للملاك العقاري

الصغير، في وضع أقرب إلى العبد، حطم النظام العبودي بشكل نهائي الحدود الفاصلة بين الفلاح والعبد، لقد أصبح المعمر حليفا طبيعيا للعبد، هكذا، أصبحت القاعدة الاجتماعية التي كان يعتمد عليها مالك العبيد محدودة، ولذلك توحد العبيد والمعمرون في جبهة موحدة إبان الثورات الشعبية الثورية في نهاية الامبراطورية الرومانية.

→ إن الوسيلة الوحيدة القادرة على ضمان حرية تطور القوى المنتجة الجديدة، هو الانقلاب الجذري الثوري للأوضاع، أي ثورة شاملة قادرة على الإقبار النهائي للمجتمع العبودي مع بنيته الفوقية السياسية. وكان لابد للعوامل الداخلية أن تتقاطع مع عوامل خارجية ليتحقق ذلك. فالحركات الشعبية بين القرن الثالث والخامس، كما هو الحال بالنسبة لثورة الباغود وحركة الأغونيست اللتان زعزعتا الامبراطورية الرومانية دون التمكن من القضاء عليها نهائيا. فمن أجل تحقيق ذلك كان على الصراع الطبقي في المجتمع أن يتقاطع مع عامل خارجي يتمثل في الطبقي في المجتمع أن يتقاطع مع عامل خارجي يتمثل في الغزوات البربرية في أراضي الامبراطورية الرومانية.

→ إن سقوط روما كان نتيجة العمل المشترك للعبيد والمعمرين من جهة، والبرابرة من جهة أخرى، أي من الوسط الاجتماعي، حيث كان النظام العبودي خلال قرون يتزود منه، فيما يخص اليد العاملة المستعبدة، اي العبيد.

#### 3) الثورات البورجوازية ضد الإقطاع:

كما هو الحال بالنسبة للمجتمع العبودي، مر النظام الاجتماعي الإقطاعي في أوروبا بمرحلتين كبيرتين في تطوره: مرحلة تصاعدية ومرحلة تنازلية.

خلال المرحلة التصاعدية اندلعت العديد من الانتفاضات الجماهيرية للفلاحين وسكان المدن، ففي أوروبا، فإن حروب الفلاحين بفرنسا سنة 1358 (لاجكري) وحروب سكان المدن (حركة الكومونات في مدن القرون الوسطى) ،قد شملت مناطق واسعة وتميزت بعناد كبير، وفي بعض الأحيان انتفض الفلاحون وسكان المدن بشكل مشترك ضد العدو المشترك أي الإقطاعيين، كما هو الحال بالنسبة للحروب التي حملت مثلا أعلى مشتركا (انشقاق ديني) كغطاء كما وقع بالنسبة لانتفاضات الألبيجوا في جنوب فرنسا خلال القرن 12 و13، والحركة الحوسية في بوهيميا في النصف الأول للقرن 15. لقد كان الأمر يتعلق بنضالات طويلة وحادة هددت طبقة الإقطاعيين والكنيسة الكاثوليكية. لكن هذه الحروب الثورية للفلاحين كانت تنتهي في آخر المطاف إلى الفشل، ففي حقيقة الأمر فإن طموحات الجماهير الفلاحية لم تخرج عن إطار النظام الاجتماعي الإقطاعي. لم يكن المنتفضون

ينتظرون أكثر من نوع من المرونة، فيما يخص النير الإقطاعي، وذلك بإرادة للملك أو القيصر أو الامبراطور، لقد كانت الأوهام تجاه هؤلاء الملوك وغيرهم متجذرة، حتى أن قادات الانتفاضات ينسبون لأنفسهم لقب الملك ويحاولون إعطاء الحركة الثورية للفلاحين الأشكال التقليدية للتراتبية الإقطاعية، وقد كان الحال نفسه بالنسبة للانتفاضات الفلاحية في الصين خلال سنوات نفسه بالنسبة للانتفاضات الفلاحية في الصين خلال سنوات أن قادة الحركات عادة ما يعودون إلى الأشكال الاستغلالية الإقطاعية.

→ لقد كان محكوما على كل هذه الحروب والحركات الفلاحية
 بالتفكك الداخلي والوهن ثم الهزيمة.

→ في صراعهم ضد الأسياد الإقطاعيين كان سكان المدن في أوروبا العصر الوسيط يحققون انتصارات أكثر أهمية من الفلاحين. فعلى إثر التمردات المنتصرة والمسماة من طرف المؤرخين بثورات الكومونات، استطاعت بعض المدن (إيطاليا كمثال) تحقيق الاستقلال الاقتصادي والسياسي، وحصلت مدن أخرى (مثال ألمانيا) على وضعية مدينة حرة رغم بقائها على الولاء، وذلك بطريقة شكلية من طرف الامبراطور الجرماني، بينما حصلت مدن أخرى (فرنسا كمثال) على حق أداء الضرائب وواجبات أخرى تجاه الملك وحده، في نفس الوقت الذي حافظت على نوع من

استقلالية كبيرة في تدبير شؤونها. لكن في كل الأحوال لم تكن الثورات المدينية تهدف إلى تصفية النظام الإقطاعي في مجموعه، أي أن طموحاتها لا تتعدى سقف المصالح الاقتصادية للمدينة، وهو نفس الحال بالنسبة لثورات الصناع في المدن الحرة، عندما كانوا ينتفضون ضد طبقة التجار والمرابين الذين كانوا يستغلون، بدون شفقة سكان المدن الفقراء، لكنهم كذلك، لم يكونوا يستهدفون النظام الإقطاعي باعتباره كذلك.

→ فطالما أن العلاقات الإقطاعية للإنتاج في المدن والبوادي، توافقان بشكل أساسي قوى الإنتاج في المجتمع، فإن الانفجارات الثورية الفلاحية والمدينية، لم يكن بإمكانها قلب النظام الإقطاعي، ولن يتحقق ذلك، إلا بعدما بدأ يعرف الوضع تغييرا جذريا مع ظهور الأشكال الأولى للاقتصاد الرأسمالي.

→ يتأكد هنا، أن قوى الإنتاج قد دخلت في نزاع مع علاقات الإنتاج في المجتمع الإقطاعي، وبأن قوى اجتماعية معادية للنظام الإقطاعي في المدن والبوادي قد نشأت، ونعني هنا طبقتان رئيسيتان وهما البورجوازية والبروليتاريا، اللذان دخلا مسرح التاريخ. هكذا مع ظهور البنيات الرأسمالية يبتدئ عصر الثورات البورجوازية المعادية للإقطاع. ويحدد المؤرخون بداية الرأسمالية في الحدود الفاصلة بين القرن الخامس عشر والسادس عشر.

→ إن الميزة الأساسية للثورات البورجوازية الأولى في الدول المنخفضة (1566 – 1609)، في انجلترا (1641 – 1653)، في المديكا (1775 – 1783) وفي فرنسا ( 1789 – 1794) هي كونها أمريكا (1775 – 1783) وفي فرنسا ( 1789 – 1794) هي كونها وقعت في بلدان كانت قاعدة النمط الرأسمالي للإنتاج فيها هو المانيفاكتورة، التي لا تختلف بنيتها التحتية بشكل أساسي عن نظام الكوريوراسيون، هكذا، ولهذا السبب، عادت الهيمنة في الثورات البورجوازية الأولى للبورجوازية حيث كانت البروليتاريا ما زالت ضعيفة، وكانت القوة السياسية المسيطرة للفئات العاملة تمثلها الفئة البورجوازية الصغيرة الثورية .

→ كان توزيع القوى الطبقية يأخذ في كل ثورة شكلا أصيلا متميزا، فالقوى المحركة للثورة الانجليزية في وسط القرن 17 كانت تتشكل من البورجوازية ومن الفئة المبرجزة من النبلاء، وهذا ما يفسر كون المسألة الأساسية للثورة، أي المسألة الزراعية، لم تحل في صالح الفلاحين، بل في صالح اللندس لورد، هكذا خانت البورجوازية الانجليزية حليفها الرئيسي الذي تحمل ثقل النضال الثوري، نعني بذلك الفلاحين.

هكذا، بعد انتصار الثورة تصارعت سيرورة نزع ملكية الفلاحين بوتيرة سريعة لدرجة أنه في بداية القرن 19 كان الفلاحون الانجليز قد انتهى وجودهم كطبقة.

فيما يخص فرنسا، لم تكن درجة تبرجز النبلاء ذات أهمية، ولذلك، ومن أجل ضمان عيشها الطفيلي كانت طبقة النبلاء الفرنسية تأخذ أموالها ليس فقط من الاستغلال المباشر للفلاحين، بل كذلك بالاستيلاء على الجزء الأكبر من مداخيل البورجوازية، وذلك عن طريق الضرائب. وما أن توقفت الحروب الداخلية بين النبلاء وتوقفت الحمائية الملكية، حتى أصبحت البورجوازية تطرح مسألة السلطة، وبما أن طبقة الملاكين العقاريين والدولة قد قاومتا طموحاتها، وبما أنها لم تجد من داخلها تلك القوى الداخلية للقضاء على الإقطاعيين، ستلجأ البورجوازية إلى فئة العمال واضعة حدا لتحالف طويل مع طبقة الملاكين العقاريين ومحولة وجهتها نحو طبقة الفلاحين والبورجوازية الصغيرة في المدن. إن الثورة التي قادتها البورجوازية الفرنسية ستقضي على جدور الإقطاعية في المدن، كما في البوادي. ومن نتائج ذلك أن عرفت فرنسا حلا للمسألة الزراعية كان في صالح الفلاحين.

في ألمانيا، لم تعرف البورجوازية الألمانية في بداية القرن 16 كيف تقدر مصالحها الحقيقية على الصعيد الوطني، ولذلك لم تقدم أي دعم فعال لطبقة الفلاحين الثورية، وبذلك فشلت أول ثورة معادية للإقطاع في ألمانيا. إن خيانة البورجوازية كان سببا في

تقسيم سياسي دائم لألمانيا، وانعكس ذلك على تطورها الاقتصادي بشكل سيء.

→ سطر انجلز إحدى أهم قوانين الثورة البورجوازية قائلا:

"حتى يمكن ضمان انتصارات البورجوازية، التي كانت ناضجة وجاهزة للحصاد، كان على الثورة أن تتجاوز الهدف" (كارل ماركس – فردريك انجلز، الأعمال المختارة في مجلدين، منشورات دار التقدم، موسكو، المجلد الثاني، ص 107).

خلال سنة 1848- 1849، كانت ألمانيا تعرف غيابا لحركة فلاحية معادية للإقطاع وضعفا للحركة البروليتارية في المدن، وهذا ما يفسر أن القوى الثورية كانت غير قادرة على الحد من تردد البورجوازية الألمانية، التي أرهبها الخوف من المساس بالملكية الخاصة، مما جعلها تفقد انطلاقتها الثورية وتتوجه نحو الملاكين العقاريين أعداء الأمس، ولذلك فشلت ثورة 1848 – 1849 في ألمانيا، وهكذا فالمشكل الرئيسي للثورة (الوحدة الوطنية لألمانيا) لم يتحقق.

⇒ غيرت المرحلة الامبريالية بشكل أساسي توزيع القوى الطبقية في البلدان التي لم تتحقق فيها بعد مهام الثورة البورجوازية المعادية للإقطاع، لقد أظهرت الثورة الشعبية في روسيا (1905 – 1907) أن البورجوازية الاحتكارية خلال الثورات الديموقراطية

البورجوازية تتخذ مواقف معادية للثورة وتتحالف مع طبقة الملاكين العقاريين الكبار، وبالتالي، فالبروليتاريا والفلاحين هما القوى المحركة لهذه الثورات الديموقراطية البورجوازية.

أما في البلدان المستعمرة وشبه المستعمرة والتابعة، فرغم ترددها وعدم استقرارها، تستطيع البورجوازية الوطنية فيها لعب أدوار ثورية.

→ حسب درجة مساهمة الجماهير الشعبية في النضال الثوري، تتوزع الثورات المعادية للإقطاع إلى ثورات بورجوازية، ثورات الأعيان، ثورات ديموقرطية بورجوازية، ثورات شعبية. ففي الثورات من النوع الأول تنجح البورجوازية في تحقيق أهدافها بدون جر الفلاحين والعمال إلى النضال، أما في النوع الثاني فمشاركة الجماهير الشعبية (الفلاحون، الطبقة العاملة) يؤثر بشكل كبير على مسار والمحطة النهائية للثورة. في كتابه "الدولة والثورة" ذكر لينين الثورة التركية (1908) والبرتغالية (1910) كنماذج لثورات الأعيان، والثورة الروسية لسنة 1905 كنموذج للثورة الشعبية. إنهما قطبان تتدحرج بينهما أغلبية الثورات البورجوازية.

→ هناك إشكالية أخرى تتمثل في موقف الثورة البورجوازية من جهاز الدولة الإقطاعي والجهاز العسكري والبيروقراطي للاستبداد.

وتظهر التجربة التاريخية في هذا الصدد، أن الثورة البورجوازية، التي لا تقضي على الاستغلال الطبقي، لا تحاول تحويل آلة الدولة التي بنتها دولة الملاكين العقاريين. فكقاعدة عامة، تحاول البورجوازية عن طريق الثورة، أن تستولي على الآلة العسكرية والبيروقراطية الاستبدادية وتكييفها مع حاجياتها وتطويرها لصالحها، ويتأثر عملها من حيث الأشكال الملموسة بطبيعة الثورة الديموقراطية البورجوازية، ويتبين من التجربة التاريخية، أنه بقدر ما تتدخل الجماهير في الثورة، بقدر ما يلقى بالأشكال القديمة للدولة الإقطاعية في مزبلة التاريخ.

هناك من الثورات البورجوازية التي أخذت شكل حروب تحرير وطني، كما هو الحال بالنسبة للثورة الأولى البورجوازية المنتصرة في البلدان المنخفضة، وذلك ضد السيطرة الإسبانية في نهاية القرن 16، ونفس الحال بالنسبة للثورة الأمريكية في نهاية القرن 18 ضد السيطرة الانجليزية، وهو كذلك حال الثورات الأمريكية اللاتينية في القرن 19 ضد المتروبولات الاسبانية والبرتغالية، والحال نفسه كذلك بالنسبة للثورات الإيطالية والهنغارية ضد النير النمساوي، والثورات في جنوب شرق أوروبا في القرن 19 ضد السيطرة التركية. أغلب ثورات التحرر الوطني هاته كانت السيطرة التركية. أغلب ثورات التحرر الوطني هاته كانت تستهدف تحرير البلاد من اضطهاد الإقطاع الأجنبي، ومع ذلك فإحدى الثورات البورجوازية الأولى للتحرر الوطني، أي النموذج

الأمريكي في القرن 18، كان من أهدافها التحرر من النير الرأسمالي الأجنبي، نير البورجوازية الانجليزية.

#### 4) الثورة البروليتارية الاشتراكية والسيرورة الثورية العالمية:

تختلف الثورة الاجتماعية للبروليتاريا عن كل أنواع الثورات الاجتماعية السابقة، وخاصة الثورة البورجوازية، فكل الثورات في التاريخ قبل ثورة أكتوبر الاشتراكية، كانت تؤدي في آخر المطاف إلى قلب شكل من أشكال الاستغلال، ثم تعويضها بأشكال جديدة للاستغلال، حيث تخضع الجماهير من جديد لنير الاستغلال والاضطهاد على يد طبقة أو طبقات جديدة، بينما تقضي الثورة الاشتراكية على كل شكل من أشكال الاستغلال.

أما الميزة الثانية للثورة الاشتراكية، فهي كون نظام الإنتاج الاشتراكي لا يولد جاهزا – كما هو الحال بالنسبة لنمط الإنتاج الرأسمالي الذي ترعرع وتطور من داخل النظام الإقطاعي – من داخل النظام الرأسمالي، بل فقط تظهر فقط مقدماته المادية من خلال التطور الذي تعرفه القوى المنتجة، التي تتميز بطابعها الاجتماعي، حيث تشكل الصناعة الكبيرة الميكانيكية قاعدتها التقنية. وعلى هذا الأساس لا يمكن للبروليتاريا والجماهير العمالية أن تحدد مجرد هدف ضيق كما تفعل الثورة البورجوازية ضد الإقطاع، التي تكتفي

بالاستيلاء على السلطة السياسية، من أجل جعل البنية الرأسمالية القائمة نمطا إنتاجيا مسيطرا.

إن الثورة البروليتارية لا تتوقف عند الاستيلاء على السلطة، فهذا الاستيلاء لا يعني بالنسبة لها سوى مرحلة البداية، ذلك أنه من أجل تحويل الملكية الرأسمالية إلى ملكية اشتراكية، أو الملكية الخاصة إلى الملكية الاجتماعية، ذات طابع جديد بالكامل، يجب القيام بالثورة السياسية وقلب السيطرة السياسية للبورجوازية وتحقيق السيطرة السياسية للطبقة العاملة، أي إنشاء دكتاتورية البروليتاريا واستعمالها من أجل تصفية الملكية الخاصة وانتصار الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج.

→ لهذا السبب، هناك بين الرأسمالية والاشتراكية مرحلة تاريخية انتقالية قد تطول أو تقصر، حيث تتحقق التحولات الثورية للبنيات القائمة، وفي هذه الفترة الانتقالية، حيث تصهر من داخل صراع طبقي حاد علاقات الإنتاج الاشتراكية الموافقة للقوى المنتجة الاجتماعية، خلال هذه المرحلة، التي تمتد فيها الثورة الاشتراكية، حيث يتحقق التحويل السياسي والاقتصادي والثقافي لحياة المجتمع، لا يمكن أن يتم انتقال تطوري من الرأسمالية إلى الاشتراكية بدون ثورة.

5) تطور الرأسمالية إلى امبريالية وقانون التطور الغير المتكافئ وأثرهما على السيرورة الثورية

انتقلت الرأسمالية إلى المرحلة الأخيرة من تطورها، وهي ما يطلق عليها من طرف الماركسيين -اللينينيين بالمرحلة الامبريالية، التي تعني رغم كل التعرجات التي يعرفها هذا التطور، دخول مرحلة الانحطاط والعد التنازلي. وتمثل الامبريالية، نتيجة خصائصها التي حددها لينين في كتابه الشهير "الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية" مقدمة للثورة الاشتراكية.

غيرت الامبريالية بشكل كبير ظروف الثورة الاشتراكية، من حيث أن التطور الاقتصادي والسياسي غير المتكافئ للدول الرأسمالية يتم عبر قفزات، مما يجعل نضج الظروف الاقتصادية والسياسية للثورة البروليتارية في مختلف البلدان غير متزامنة، وقد كان لينين أول من اكتشف هذا القانون للرأسمالية، الذي يثبت إمكانية قيام الثورات في الحلقات الضعيفة من السلسلة الامبريالية، وهنا لابد من تسجيل أن الحلقة الأضعف في السلسلة الامبريالية، أي البلد الناضج موضوعيا من أجل انتصار الثورة الاشتراكية، لا يعنى بالضرورة بلدا أكثر تطورا من الناحية الاقتصادية، بل ذلك الذي توجد فيه عقدة من التناقضات الامبريالية، أي ذلك البلد الذي وصلت فيه التناقضات الاجتماعية والاقتصادية للإمبريالية حدا أقصى. في بلدان كهذه، يساهم تفاقم التناقضات الاجتماعية في

إنضاج الجماهير الشعبية من أجل القيام بالثورة، ويخلق الظروف الموضوعية من أجل قلب السيطرة الاقتصادية والسياسية للبورجوازية وإقامة دكتاتورية البروليتاريا.

على قاعدة التغيير الذي تم بحكم تطور الرأسمالية إلى امبريالية، عرفت السيرورة الثورية العالمية انشطارا جعل الأفق الاشتراكي للثورة ينطلق من نوعين مختلفين من الثورات، الثورات الاشتراكية في دول المراكز الامبريالية والثورات الديموقراطية البورجوازية، في بلدان المستعمرات وأشباه المستعمرات والدول التابعة، وهي عموما ما يطلق عليه بثورات التحرر الوطني للبلدان المضطهدة من طرف الامبريالية. في هذه البلدان، فبقايا النظام الإقطاعي أو ما يشابهه يتم الدفاع عنها، في نفس الوقت من طرف الملاكين العقاريين والبورجوازية الكومبرادورية المتحالفة مع الامبريالية، وبالتالي تأخذ الثورات في هذه البلدان بقيادة الطبقة العاملة وحزبها الثوري الماركسي اللينيني، وبالتحالف مع الفلاحين، طابعا معاديا للإقطاع والكمبرادور والامبريالية، ولذلك أصبحت ثورات التحرر الوطني حليفا أساسيا للثورة الاشتراكية العالمية.

لقد كان ولا زال، أن جوهر السياسة الاستعمارية الجديدة، يقوم على منع الدولة الحديثة العهد بالاستقلال، من تطوير اقتصادها الوطني، وخاصة صناعتها، وذلك لربطها بعجلة النظام

الاقتصادي والسياسي العالمي للرأسمالية أي جعلها تدور في فلك الرأسمالية.

يقول لينين في هذا الصدد:

"يتحدث إيديولوجيو الامبريالية عن التحرر الوطني تاركين في الظل التحرر الاقتصادي، والحال أنه في الواقع، فهذا الأخير هو الأهم" (الأعمال الكاملة، مجلد 22، ص 187).

ليس هناك سوى وسيلة واحدة لتجاوز التأخر الاقتصادي وتحقيق اقتصاد متطور، وهي الانخراط في إقامة صناعة وطنية متقدمة ودعم ذلك بإصلاح زراعي. إن الاستقلال الاقتصادي والسياسي وبناء اقتصاد وطني، لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق نضال ثوري بقيادة الطبقة العاملة وحزبها الثوري ضد الامبريالية والقوى الرجعية داخل البلدان التابعة.

→ لا تنتصر الثورات البروليتارية في نفس الوقت، في نفس البلدان، والانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية في العالم كله يمتد على مرحلة طويلة تاريخيا، مرحلة الثورات الاشتراكية وثورات التحرر الوطني. لكن، وإن قامت هذه الثورات في لحظات مختلفة، فإنها تندمج في سيرورة ثورية عالمية واحدة.

11 بناير 2018

رسائل

## من ماركس الى بافل اننكوف

في باريس

بروكسل ، ۲۸ كانون الاول (ديسمبر) [عام ٢٨٠]

عزيزي السيد اننكوف!

لو ان بائع الكتب الذي اتعامل معه لم يتأخر في ارسال كتاب السيد برودون «بؤس الفلسفة» الى حتى الاسبوع الماضى ، لكنت تلقيت من زمان جواباً عن رسالتك بتاريخ اول تشرين الثاني (نوفمبر) . ولقـــد تصفحت الكتاب في مدى يومين لكي كبيرة ، فلا يسعني ان اتناوله بالتفصيل . انما استطيع فقط ان اتحدث عن الانطباع العام الذي تركه في نفسى . واذا شئت ، فبمقدوري ان اكتب لك عنه بمزيد من التفصيل في رسالة تالية . اعترف صراحة انى اجد الكتاب على العموم رديئاً ، رديئاً جداً . وانت نفسك تمزح في رسالتك بصدد «الزاوية من الفلسفة الالمانية» التي يتغندر فيها السيد برودون بهذا المؤلف الدعى والعديم الشكل ، ولكنك تظن أن السم الفلسفي لم يسمم دراساته الاقتصادية . وانا ايضا بعيد عن اعتبار فلسفة السيد برودون سبب اخطاء دراساته الاقتصادية . فان السيد برودون لا ينتقد الاقتصاد السياسي انتقادا خاطئاً لأنه صاحب فلسفة مضحكة -بل انه يقدم لنا فلسفة مضحكة لأنه لم يفهم النظام الاجتماعي



وسائل ماركس وإنجلز فول العادية التاريخية

الحديث بتعشيقاته [engrènement] اذا استعملنا كلمة يستقرضها السيد برودون مثل كثيرين غيره من فوريه .

لماذا يتكلم السيد برودون عن الله وعن العقل العام وعن عقل البشريـة اللامشخص ، الذي لا يخطئ ابدا والذي كان دائماً مساوياً لنفسه والذي حسبنا ان نكو "ن فكرة صحيحة عنه حتى نمتلك الحقيقة ؟ لماذا يلجأ الى الهيغلية التي فهمها فهما سطحياً لكي يرسم عن نفسه صورة مفكر عميق ؟

انه هو نفسه يعطينا المفتاح لفض اللغز . فان السيد برودون يرى في التاريخ عدداً معيناً من التطورات الاجتماعية . ويجد في التاريخ تحقيق التقدم . ويجد اخيرا ان الناس ، مأخوذين كأفراد منفردين ، لم يعرفوا ما يفعلون ، وانهم كونوا فكرة خاطئة عن حركتهم بالذات ، مفادها ان تطورهم الاجتماعي يبدو ، من النظرة الاولى ، شيئاً متميزاً ، منفصلا ، مستقلا عن تطورهم الفردي . وليس بمقدوره ان يفسر هذه الوقائع ، ولذا تظهر هنا بالذات الفرضية القائلة بالعقل العام المتجلى . وعندما ينقص العقــــــل السليم ، ليس ثمة ما هو اسهل من اختراع الاسباب الصوفية ، اى من تلفيق الجمل الفارغة .

ولكن السيد برودون ، حين يعترف بعدم فهمه التام لتطور

البشرية التاريخي ، - وهو يعترف بهذا عندما يلجأ الى الكلمات المدوية عن العقل العام وعن الله ، وما الى ذلك ، - الا يعترف بالتالي حتماً بانه عاجز عن فهم التطور الاقتصادي ايضاً ؟ ما هو المجتمع ، اياً كانت اشكاله ؟ نتاج تعاون الناس . هل الناس احرار في اختيار هذا الشكل او ذاك من اشكال المجتمع ؟ كلا ، ابدأ . خد درجة معينة من تطور قوى الناس المنتجة ، تحصل على شكل معين للتبادل [commerce] والاستهلاك . خذ درجة معينة من تطور الانتاج والتبادل والاستهلاك ، تحصل على نظام اجتماعي معين ، وتنظيم معين للعائلة او الفئات او الطبقات ، -و بكلمة مجتمع مدنى معين . خذ مجتمعاً مدنياً معيناً ، تعصل على نظام سياسي معين لا يعدو ان يكون تعبيراً رسمياً عن المجتمع

المدنى . وهذا ما لن يفهمه السيد برودون ابداً لأنه يتصور بأنه يجترح شيئاً ما عظيماً عندما يستعيض عن الدولة بالمجتمع المدنى ، اي عن خلاصة المجتمع الرسمية بالمجتمع الرسمي .

ومن نافل الكلام أن نضيف إلى هذا أن الناس ليسوا احراراً في اختيار قواهم المنتجة التي تشكل اساس تاريخهم كله لأن كل قوة منتجة هي قوة مكتسبة ، هي نتاج نشاط سابق . وعليه تكون القوى المنتجة نتيجة طاقة الناس العملية ، ولكن هذه الطاقة ذاتها تحددها الظروف التي يعيش في ظلهـا الناس ، والقوى المنتجة المكتسبة سابقاً ، وشكرل المجتمع الذي كان موجوداً قبلهم ، والذي لم يصنعه هؤلاء الناس ، بل صنعه الجيل السابق . و بفضل هذا الواقع البسيط وهو ان كل جيل لاحق يجد القوى المنتجة التي اكتسبها الجيل السابق ، وان هذه القوى المنتجة تؤلف بالنسبة له مادة خاماً لأجل الانتاج الجديد ، - بفضل هذا الواقع تتشكل الصلة في التاريخ البشري ، يتشكل تاريخ البشرية الذي يصبح اكثر فاكثر تاريخ البشرية بقدر ما تتنامى قوى الناس المنتجة ، وبالتالي علاقاتهم الاجتماعية . ومن هنا استنتاج ضروري : ان تاريخ الناس الاجتماعي انما هو دائماً مجرد تاريخ تطورهم الفردي ، سواء ادركوا هذا ام لا . ان علاقاتهم المادية تشكل اساس جميع علاقاتهم . وهذه العلاقات المادية ليست غير الاشكال الضرورية التي يجري بها نشاطهم المادي والفردي .

ان السيد برودون يخلط الافكار والاشياء . فان الناس لا يتخلون ابدأ عما اكتسبوه ، ولكن هذا لا يعني انهم لن يتخلوا عن ذلك الشكل من اشكال المجتمع الذي اكتسبوا فيه قوى منتجة معينة . بل بالعكس . فلكي لا يفقد الناس النتيجة الحاصلة ، لكي لا يخسروا ثمار الحضارة ، ينبغي عليهم ان يغيروا جميع الاشكال الاجتماعية الموروثة عندما لا يبقى اسلوب تعاملهم [commerce] متطابقاً مع القوى المنتجة المكتسبة . - وانا استعمل هنا كلمة « commerce » باوسع معانيها ، بالمعنى الذي تستعمل به في الالمانية كلمة « Verkehr » . - مثلا" : ان الامتيازات ، وطوائف

الحرف ، والجمعيات ، وكــــــل منهاج التنظيم الحرفي في القرون الوسطى ، انما كانت عبارة عن علاقات اجتماعية مطابقة وحدها دون غيرها للقوى المنتجة المكتسبة وللنظام الاجتماعي الموجود من قبل ، والذي انبثقت منه هذه المؤسسات ، وفي ظل بنيان التنظيم الحرفي ، تراكمت الرساميل ، وتطورت التجارة البحرية ، وأ'سست المستعمرات ؛ ولو ان الناس ارادوا صيانة الاشكال التي نضجت في ظلها هذه الثمار ، لكانوا حرهوا انفسهم من ثمار كل هذا . ولهذا دوت ضربتان كدوي الرعد ، هما ثورتا ١٦٤٠ و١٦٨٨ . فان جميع الاشكال الاقتصادية القديمـــة ، والعلاقات الاجتماعية المطابقة لها ، والنظام السياسي الذي كان التعبير الرسمي عن المجتمع المدني القديم ، - كل هذا تم تدميره في انجلترا . وعليه تكون الاشكال الاقتصادية التي ينتج الناس ويستهلكون ويتبادلون في ظلها اشكالا عابرة وتاريخية . ومع اكتساب قوى منتجة جديدة ، يغير الناس اسلوب الانتاج ، ومع اسلوب الانتاج يغيرون جميع العلاقات الاقتصادية التي لم تكن علاقات ضرورية الا لاسلوب الانتاج المعين هذا .

وهذا ما لم يفهمه السيد برودون ، ناهيك عن انه لم يبيتنه . وبما ان السيد برودون عاجز عن تتبع السير الفعلى للتاريخ ، يتحفنا ، عوضاً عن هذا ، بسلسلة من الاوهام تدعى بأن تكون سلسلة ديالكتيكية من هذا النوع . وهو لا يشعر بالحاجة الى الكلام عن القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر لأن تاريخه يجري في ذرى الخيال ما فوق الغيوم ، ويحلق عالياً ما وراء حدود الزمان والمكان . وبكلمة ، ان هذا من النفايات الهيغلية وليس تاريخا عادياً ، تاريخ البشر ، بل تاريخ مقدس ، اي تاريخ الافكار . فالانسان من وجهة نظر برودون ليس غير اداة يستخدمها الفكر او العقل السرمدي من اجل تطوره . ان التطورات (évolutions - المترجم) التي يتحدث عنها السيد برودون هي ، حسب تفسيره ، تطورات تجري في جو الفكرة المطلقة الغامض . واذا نزعت الغطاء عن كل هذا الكلام الغامض ، لرأيت أن السيد

برودون يرسم لك نظاماً تقوم بموجبه المقولات الاقتصادية في رأسه . ولا ادعى لى الجهد الكبير لكى أثبت لك ان هذا نظام رأس مشوش جداً .

يستهل السيد برودون كتابه بمحاكمة حول القيمة ، وهي موضوعه المفضل. وهذه المرة لن احلل هذه المحاكمات.

ان جملة من تطورات العقل السرمدي الاقتصادية تبدأ من تقسيم العمل . فان تقسيم العمل هو ، بنظر السيد برودون ، شيء بسيط تماماً . ولكن ألم يكن نظام الفئات المغلقة شكلا معيناً من تقسيم العمل ؟ ألم يكن النظام الحرفي شكلا آخر من تقسيم العمل؟ وتقسيم العمل في مرحلة المانيفاكتوره التي تبدأ في منتصف القرن السابع عشر وتنتهى في انجلترا في اواخر القرن الثامن عشر ، الا يتميز تماماً وكلياً عن تقسيم العمل في الصناعة الكبيرة العصرية ؟

ان السيد برودون يفهم كنه المسألة بصورة رديئة الى حد انه يغيب عن باله حتى ما لا ينساه الاقتصاديون العاديون . فهو حين يتكلم عن تقسيم العمل ، لا يشعر ابداً بالحاجة الى الكلام عن السوق العالمية ، هكذا اذن ! ولكن تقسيم العمل في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، حين لم تكن ثمة بعد مستعمرات ، حين لم تكن بعد اميركا موجودة بالنسبة لاوروبا ، وحين لم تكن الصلة مع آسيا الشرقية تقوم الا عبر القسطنطينية ، ترى ، ألم يكن يتميز حتماً بصورة جذرية عن تقسيم العمل في القرن السابع عشر ، حين كانت قد ظهرت مستعمرات متطورة تماماً ؟ ولكن هذا ليس بعد كل ما في الامر . ترى ، اليس تنظيم الشعوب الداخلي كله وعلاقاتها العالمية كلها تعبيرا عن شكل معين من تقسيم العمل ؟ ترى ، ألا ينبغي ان يتغير كل هذا مع تغير تقسيم العمل ؟

ان السيد برودون بعيد عن فهم مسألة تقسيم العمل الى حد انه لا ينبس ببنت شفة عن قصل المدينة عن القرية ، الذي جرى ، في المانيا مثلا ، من القرن التاسع الى القرن الثاني عشر السيد برودون عندما يستحضر شبح المزاحمة بوصفه التطور الثالث ، بوصفه نقيض الآلة!

واخيراً ، من غير المعقول عموماً تحويل الآلات الى مقولة اقتصادية الى جانب تقسيم العمل ، والمزاحمة ، والتسليف ،

ان الآلة ، شأنها شأن الثور الذي يجر المحراث ، قلمًا تكون مقولة اقتصادية . فان استعمال الآلات في الوقت العاضر هو احدى علاقات نظامنا الاقتصادي المعاصر ، ولكن اسلوب استثمار الآلات ليس ابدآ الآلات ذاتها . فالبارود يبقى بارودا سواء استعمل لاجل اصابة رجل بجراح ، ام لأجل علاج جراح الرجل نفسه .

ان السيد برودون يتجاوز نفسه بنفسه حين يخلق في رأسه المزاحمة والاحتكار والضريبة او البوليس والميزان التجارى والتسليف والملكية في الترتيب الذي اوردتها به الآن . فان مؤسسات التسليف جميعها تقريباً قد تطورت في بريطانيا في مستهل القرن الثامن عشر ، اى قبل اختراع الآلات . ان تسليف الدولة لم يكن غير اسلوب جديد لزيادة الضرائب وتلبية العاجات الجديدة الناجمة عن وصول طبقة البرجوازية الى الحكم .

واخيراً تشكل الملكية المقولة الاخيرة في منهج السيد برودون . اما في العالم الفعلى ، فالامر بالعكس ؛ فان تقسيم العمل وجميع مقولات السيد برودون الاخرى هي عبارة عن علاقات اجتماعية تشكل بمجموعها ما يسمونه في الوقت الحاضر بالملكية ؛ وخارج هذه العلاقات ، ليست الملكية البرجوازية غير وهـم ميتافيزيائي وحقوقي . فان ملكية عصر آخر ، الملكية الاقطاعية ، تتطور في ظل علاقات اجتماعية مختلفة تماماً . وان السيد برودون ، اذ يصف الملكية بانها علاقة مستقلة ، يقترف ما هو اسوأ من غلطة منهاجية ؛ فهو يبيّن عدم فهمه لتلك الصلة التي تربط بين جميع اشكال الانتاج البرجوازى ؛ وهو يبين عدم فهمه للطابع التاريخي والعابر لاشكال الانتاج في عصر معين . وبما ان السيد برودون لا يرى ان مؤسساتنا الاجتماعية هي نتاج التطور التاريخي

ضمناً . ولهذا كان هذا الفصل ، بنظر السيد برودون ، قانوناً سرمدياً ، لأنه لا يعرف لا منشأه ولا تطوره . وهو يحاكم في كل كتابه كأن هذا النتاج لاسلوب انتاج معين سيظل قائماً حتى آخر الدهر . وكل ما يقوله السيد برودون عن تقسيم العمل لا يعدو ان يكون خلاصة - ناهيك عن انها خلاصة سطحية جداً وغير كاملة -لما قاله من قبله آدم سميث وكثيرون آخرون .

التطور الثاني - هو الآلات . ان الصلة بين تقسيم العمل والآلات عند السيد برودون غامضة تماماً . فكل شكل من اشكال تقسيم العمل كانت تناسبه ادوات انتاج خاصة به . فمنذ منتصف القرن السابع عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر ، مثلا ، لم يكن الناس يصنعون كل شيء بايديهم . كانت عندهم ادوات ، بله ادوات معقدة جداً ، كالآلات الادوات والسفن والامخال ، وهكذا دواليك وهلمجرا .

وعليه من السخف اطلاقاً ان نعتبر ظهور الآلات نتيجـــة لتقسيم العمل بوجه عام .

والاحظ عرضاً ان السيد برودون قلَّما فهم تاريخ تطور الآلات وكذلك تاريخ منشئها . يمكن القول ان مقتضيات الاستهلاك قد ازدادت على العموم قبل عام ١٨٢٥ - اي قبل عهد الازمة العامة الاولى - بأسرع مما ازداد الانتاج ، وان تطور الآلات كان نتيجة محتمة لحاجات السوق . ومنذ عام ١٨٢٥ لم يكن اختراع الآلات واستعمالها الا نتيجة للحرب بين ارباب العمل والعمال . ولكن هذا القول لا يصم الا على انجلترا . اما الامم الاوروبية ، فان مزاحمة انجلترا ، سواء في سوقها الداخلية ام في السوق العالمية ، هي التي اجبرتها على استعمال الآلات . واخيراً ، بدأ استعمال الآلات في اميركا الشمالية سواء من جراء المزاحمة مع الشعوب الاخرى ام من جر ًا، نقص الايدي العاملة اي من جر ًا، عدم التطابق بين الحاجات الصناعية في اميركا الشمالية وبين سكانها . ومن هذه الوقائع بوسعك ان تستخلص وتعرف اي حدة ذهن يبديها

ولا يفهم لا منشاها ولا تطورها ، فلا يسعه ان يسلط عليها غير نقد عقائدي جامد .

ولتفسير التطور ، يضطر السيد برودون للجوء الى الوهم . فهو يتصور ان تقسيم العمل ، والتسليف ، والآلات ، والخ . ، -ان كل هذا قد أ'خترع من اجل خدمة فكرته الثابتـــة ، فكرة المساواة . وتفسيره ساذج للغاية . فان كل هذه الاشياء قد ابتكرت من اجل المساواة ، ولكنها ، مع الأسف انقلبت على المساواة . وفي هذه تتلخص كل محاكمته ، اي انه يأخذ فرضية اعتباطية ؛ ولكن لما كان التطور الفعلى يناقض وهمه لدى كل خطوة ، فهو يستنتج من هذا انه يوجد تناقض . بيد انه يخفي ان هذا التناقض لا يوجد الا بين افكاره الثابتة والحركة الفعلية .

وهكذا لم يفهم السيد برودون ، - وذلك في المقام الاول لعدم وجود معارف تاريخية عنده - ان الناس ، اذ يطورون قواهم المنتجة ، اي اذ يعيشون ، يطورون علاقات معينة بعضهم مع بعض ، وان طابع هذه العلاقات يتغير حتماً مع تحول ونمو هذه القوى المنتجة . ولم يفهر ان المقولات الاقتصادية ليست غير تعريدات لهذه العلاقات الفعلية وليست عبارة عن حقائق الا ما دامت هذه العلاقات موجودة . وعليه يقع في خطأ الاقتصاديين البرجوازيين الذين يرون في هذه المقولات الاقتصادية قوانين ابدية ، لا قوانين تاريخية ، - اي قوانين لا يسري مفعولها الا في مرحلة معينة من التطور التاريخي ، في مرحلة معينة من تطور القوى المنتجة . وبدلا من ان يعتبر السيد برودون ، بالتالي ، المقولات الاقتصادية السياسية تجريدات للعلاقات الاجتماعية التاريخية العابرة ، الفعلية ، يشوه المسألة بصورة صوفية ، ويرى في العلاقات الفعلية مجرد تجسيد لهذه التجريدات ، وما هذه التجريدات الا صيغ كانت نائمة في حضن الاله الوالد منذ خلق العالم بالذات .

وهنا يبدأ عند صاحبنا الطيب السيد برودون مخاض فكري عسير ؛ فاذا كانت جميع هذه المقولات الاقتصادية فيض من قلب

الاله ، واذا كانت تشكل حياة الناس المخفية والابدية ، فكيف امكن بالتالي ، اولا ، انه يوجد تطور ، وثانياً ، ان السيد برودون ليس محافظاً ؟ وهذه التناقضات البيِّنة يفسرها بنظام كامل من التناحرات .

ولنلقى النور على نظام التناحرات هذا ، نأخذ مثلا .

الاحتكار صالح ، لأنه مقولة اقتصادية ولأنه بالتالي فيض من الاله . والمزاحمة صالحة لأنها هي ايضاً مقولة اقتصادية . اما ما هو طالح ، فهو واقع الاحتكار وواقع المزاحمة . وما هـــو اسوأ ، هو ان الاحتكار والمزاحمة يلتهمان احدهما الآخر . فما العمل ؟ بما ان هاتين الفكرتين السرمديتين من افكار الالــــه تتناقضان ، فانه يبدو للسيد برودون من الجلي ً انه يوجد كذلك في حضن الاله مركب من هاتين الفكرتين توازن فيه المزاحمة شر الفكرتين ، فانها ستكون ظهور جانبهما الصالح فقط . فينبغى انتزاع هذه الفكرة السرية من الاله ، ثم تطبيقها ، فيغدو كـــل شيء على ما يرام . ينبغى ايجاد الصيغة المركبة المخفية في ظلمة عقل البشرية اللامشخُّص . ودون التردد دقيقة واحدة ينبري السيد برودون بوصفه الشخص الذي يفض هذا السر.

ولكن لنلق نظرة خاطفة الى الحياة الفعلية . فانت لا تجد في الحياة الاقتصادية المعاصرة المزاحمة والاحتكار وحسب ، بل تجد كذلك جميعتهما ، وهذه الجميعة ليست صيغة بل حركة . فالاحتكار يولد المزاحمة ، والمزاحمة تولد الاحتكار . ولكن هذه المعادلة لا تقضى على مصاعب الوضع الراهن ، كما يتصور الاقتصاديون البرجوازيون ، بل تخلق في النتيجة وضعاً اشد عسراً واكثر غموضاً وتشوشاً . وهكذا بتغييرك الاساس الذي ترتكز عليه العلاقات الاقتصادية العصرية ، وبقضائك على اسلوب الانتاج العصري ، لا تقضى على المزاحمة والاحتكار وتناحرهما وحسب ،

<sup>\*</sup> \_ والعكس بالعكس . الناشر .

وسط ممتاز حقاً ، اي ، بتعبير آخر ، عن التسوازن بين العبودية والحرية.

ان السيد برودون فهم جيداً جداً ان الناس ينتجون الجوخ والجنفاص والقماش الحريري ، وليست تلك بمأثرة كبيرة ان يفهم المرء مثل هذه القلة من الامور! ولكن ما لم يفهمه السيد برودون ، هو ان الناس ينتجون وفقاً لقواهم المنتجة علاقات اجتماعية ينتجون في ظلها الجوخ والجنفاص. وفهم السيد برودون فهما اقل ان الناس ، اذ ينتجون العلاقات الاجتماعية وفقاً لانتاجهم المادي ، يخلقون كذلك افكاراً ومقولات ، اى تعابير مجردة ، فكرية عن هذه العلاقات الاجتماعية ذاتها . وهكذا قلمًا تكون المقولات ابدية ، شأنها في هذا شأن العلاقات التي هي تعبير عنها . فالمقولات منتوجات تاريخية وعابرة . اما السيد برودون ، فالامر بالعكس تماماً في نظره ؛ فإن التجريدات ، المقولات هي السبب الاولى". وهو يرى انها هي التي تصنع التاريخ ، لا البشر . أن التجريد ، المقولة ، مأخوذاً بصفته هذه ، أي بمعزل عن البشر ونشاطهم المادي ، هو ، بالطبع ، خالد ، ثابت لا يتغير ولا يتحرك . وهو لا يعدو ان يكون وليد العقل الصافى ، وهذا يعنى بكل بساطة ان التجريد بعد ذاته هو مجرد . فيل للتكوار البديع!

وعليه ، أن العلاقات الاقتصادية مدروسة بشكل مقولات ، هي بنظر السيد برودون ، صيغ سرمدية لا منشأ لها ولا تطور . وبتعبير آخر نقول ان السيد برودون لا يؤكد مباشرة ان الحياة البرجوازية مي بنظره حقيقة سرمدية ، بـل يؤكد هذا بصورة غير مباشرة ، بتأليهه المقولات التي تعبر بشكل الافكار عن العلاقات البرجوازية . وبما ان منتوجات المجتمع البرجوازي تبدو له بالاحرى بشكل مقولات التفكير ، فهو يعتبرها كائنات سرمدية انبثقت من تلقاء ذاتها ، وتملك حياة خالدة . فهو اذن لا يتخطى حدود الافق البرجوازي ، وبما انه يتناول افكاراً برجوازية ، ويعتبرها حقائق سرمدية ، فانه يفتش عن جميعة لهذه

بل تقضي ايضاً على وحدتهما ، على جميعتهما – اي على الحركة التي يجري فيها بالذات التوازن الفعلى بين المزاحمة والاحتكار . والآن اقدم لك نموذجاً من ديالكتيك السيد برودون .

العرية والعبودية تشكلان تناحراً . ولا داعي لي الى الكلام لا عن جوانب الحرية الصالحة ولا عن جوانبها الطالحة . امـــــــا العبودية ، فلا حاجة الى الكلام عن جوانبها الطالحة . والشبيء الوحيد الذي ينبغي توضيعه ، هو الجانب الصالح من العبودية . والمقصود هنا ليس العبودية غير المباشرة ، ليس عبودي\_\_\_ة البروليتاريا . المقصود هنا العبودية المباشرة ، عبودية الزنوج في سورينام والبرازيـــل وفي المناطق الجنوبيـــة من اميركا الشمالية .

ان العبودية المباشرة هي اساس صناعتنا العصرية ، شأنها شأن الآلات والتسليف ، النح . . فلا قطن بدون العبودية ، ولا صناعة عصرية بدون القطن . والعبودية جعلت للمستعمرات قيمة ، والمستعمرات خلقت التجارة العالمية ، والتجارة العالمية هي الشرط الضروري للصناعة الآلية الكبيرة . وقبل ظهور التجارة بالزنوج ، كانت المستعمرات تعطى العالم القديم قدراً قليلا جداً من المنتوجات ، ولم تغير وجه العالم تغييراً ملحوظاً نوعاً ما . وهكذا تكون العبودية مقولة اقتصادية هائلة الشأن . فلولا العبودية ، لكانت تحولت اميركا الشمالية ، البلد الاكثر تقدماً ، الى بلد بطريركي . امحوا اميركا الشمالية وحدها من خريطة العالم ، تحصلوا على الفوضى وتدهور التجارة والحضارة العصرية تدهورا تاماً . ولكن القضاء على العبودية من شأنه ان يعني في هذه الحال ان اميركا تنمحي من خريطة العالم . وهكذا نجد العبودية عند جميع الشعوب منذ خلق العالم ، وذلك على وجه الضبط لكونها مقولة اقتصادية . وكل ما استطاعته الشعوب العصرية ، هو تمويه العبودية عندها بالذات وتطبيقها على المكشوف في العالم الجديد . فما عسى أن يفعل السيد برودون الفائق الطيبة بعد هذه الآراء في العبودية ؟ انه سيفتش عن جميعة للحرية والعبودية ، عن

الافكار ، عن توازن لها ، ولا يرى ان الاسلوب العصري لتوازنها هو الاسلوب الوحيد الممكن .

وهو من حيث جوهر الامر يفعل ما يفعله جميع البرجوازيين الطيبين . فانهم جميعهم يقولون لكهم ان المزاحمة والاحتكار ، النح . ، هي من حيث المبدأ ، اي اذا أ'خذت كمفاهيم مجردة ، الاسس الوحيدة للحياة ، ولكنها تحمل في الواقع على تمنيي الكثير . وجميعهم يريدون المزاحمة بدون عواقبها الوخيمة . وجميعهم يريدون المستحيل ، اي ظروف الحياة البرجوازية بدون العواقب الضرورية الناجمة عـــن هذه الظروف. وجميعهم لا يدركون ان اسلوب الانتاج البرجوازي هو شكل تاريخي وعابر مثلما كان الشكل الاقطاعي عابراً . ان هذا الخطأ ينبع من أن الانسان البرجوازي هـو بنظرهم الاساس الوحيد للمجتمع ، كل مجتمع ، من انهم لا يتصورون نظاماً اجتماعياً لا يكون فيه هذا الانسان برجوازياً .

ولهذا كان السيد برودون ، بلا مناص ، عقائديا جامداً . فان الحركة التاريخية التي تحدث انقلابـــاً في العالم المعاصر ، تتلخص بنظره في مهمة اكتشاف التوازن الحقيقي بين فكرتين برجوازيتين ، اكتشاف جميعة هاتين الفكرتين . وهكذا يكتشف هذا الفتى الفطن بالحيلة فكرة الاله السرية ، ووحدة فكرتين منفصلتين ليستا منفصلتين الا لأن السيد برودون يفصلهما عن الحياة العملية ، عن الانتاج المعاصر ، الذي هو جمع للوقائـع التي تعبر عنها هاتان الفكرتان . وعوضاً عن الحركة التاريخية العظيمة التي تولد من النزاع بين القوى المنتجة التي اكتسبها الناس وبين علاقاتهم الاجتماعية التي لم تعد تتطابق مع هذه القوى المنتجة ؛ وعوضاً عن الحروب الرهيبة التي تهيأ بيـــن مختلف الطبقات في امة واحدة وكذلك بين مختلف الامم ؛ وعوضاً عن نشاط الجماهير العملي والثوري السذي سيتمكن وحده دون غيره من فض هذه الاصطدامات ، - عوضاً عن هذه الحركية الرحبة والمديدة والمعقدة ، يقدم السيد برودون حركة بدائية

[mouvement cacadauphin] تجري في رأسنه . وهكذا فالتاريخ يصنعه علماء ، اناس بوسعهم ان يختطفوا مـــن الاله فكرته الحميمة . اما الشعب البسيط ، فينبغي عليه فقط ان يطبق كلامهم المنزل في الواقع .

وانك لتفهم الآن لماذا كان السيد برودون عدواً لدوداً لكل حركة سياسية . فان حل القضايا المعاصرة يتلخص ، بنظره ، لا في العمل الاجتماعي ، بل في الدورات الديالكتيكية الجارية في رأسه . و بما ان المقولات هي ، بنظره ، القوى المحركة ، فلا داعي الى تغيير الحياة العملية من اجل تغيير المقولات . فالامر بالعكس تماماً . يجبب تغيير المقولات ، ونتيجة لهذا يتغير المجتمع القائم .

ورغبة في التوفيق بين التناقضات ، يتجنب السيد برودون تماماً السؤال التالي : الا ينبغي نسف هذه التناقضات من الاساس بالذات ؟ وهو يشبه في كل شيء عقائدياً جامداً سياسياً يرغب في الحفاظ في آن واحد على الملك ومجلس النواب ومجلس الشيوخ كاجزاء لا تتجزأ من الحياة الاجتماعية ، كمقولات سرمدية . وهو لا يفعل غير ان يفتش عن صيغة جديدة لكي يوازن بين هاتين القوتين اللتين يقـــوم توازنهما على وجه الضبط في الحركــة المعاصرة حيث تكون احدى هاتين القوتين تارة هي الظافرة وطوراً عبدة للاخرى . ففي القرن الثامن عشر ، مثلا ، حاولت كثرة من الرؤوس المتوسطة الذكاء ان تجد صيغة صحيحة لكى توازن بين الفئات الاجتماعية والنبلاء والملك والبرلمانات ، الغ . ، واذا بها تستفيق في اليوم التالي فلا تجد لا الملك ولا البرلمانات ولا النبلاء . لقد كان الاسلوب الصحيح لتوازن هذا التناحر نسف جميع العلاقات الاجتماعية التي كانت اساس هذه المؤسسات الاقطاعية واساس التناحر بين هـنه المؤسسات الاقطاعية .

وبما ان السيد برودون يضع ، في جانب ، الافكار السرمدية ، مقولات العقل الخالص ، وفي جانب آخر ، الناس وحياتهم العملية

التي هي ، بنظره ، تطبيق لهذه المقولات ، فانــــك تجد عنده بادئ ذي بدء الاثنينية بين الحياة والافكار ، بين الروح والجسد ، - وهي اثنينية تتكرر في اشكال مختلفة . وانك لترى الآن ان هذا التناحر لا يعدو ان يكون مجرد عجز السيد برودون عن فهم اصل المقولات التي يؤلهها وعن فهم تاريخها العادي .

لقد استطالت رسالتي اكثر مـن اللزوم ، ولذا لم يبق بامكاني ان اتناول حملات السيد برودون المضعكة على الشيوعية . ولكنك توافق معي على ان المرء الذي لم يفهم وضع المجتمع في الظرف الراهن أعجز ايضاً عن فهم الحركة التــــى تسعى الى تدمير هذا المجتمع وعن فهـم التعابير الادبية لهذه الحركة الثورية .

ان النقطة الوحيدة التي اتفق فيها كلياً مع السيد برودون ، هي اشمئزازه من العاطفية الاشتراكية . فقبله استثرت ضدي عداوة كبيرة بسخري مـــن الاشتراكية البليدة ، العاطفية ، الطوباوية . ولكن ألا يخلق السيد برودون نفسه لنفسه اوهاماً بياناته بصدد العائلة والحبب الزوجي وجميع ابتذالاته ، -العاطفية الاشتراكية التي هي ، عند فوريه مثلا ، اعمق بكثير من غثاثات صاحبنا الطيب برودون الدعية ؟ وهو نفسه يشعر بتفاهة حججه وبعجزه التام عن الكلام عن جميــع هذه الاشياء، ويشعر بهما جيداً الى حد انه ينسى نفسه فجأة ويتملكه الغيظ، وفي irae hominis probi \* يشرع يزعق ويرغي ويزبد ويشتم ، ويفضح ، ويتهم ، ويلعـن ويضرب صدره ويتبجح امام الرب والبشر انه نقي من الرذائل الاشتراكية! انه لا ينتقد العاطفية الاشتراكية او ما يعتبره عاطفية . وهو ، مثل القديس ، مثل الصغيرة واوهام الموقد البيتي الغرامية والبطريركية الحقيرة . وهذا ليس من قبيل الصدفة . فأن السيد برودون من رأسه الى \* \_ الغيظ النبيل . الناشر .

اخمص قدميه فيلســوف واقتصادي البرجوازية الصغيرة . والبرجوازي الصغير في مجتمع متطور يصبح ، بحكم وضعه بالذات ، من جهة اشتراكياً ، ومن جهة اخرى اقتصادياً ، اي ان أبهة البرجوازية الكبيرة تبهره ، وانه يعطف على آلام الشعب . وهو في آن واحد البرجوازي والشعب معا . وهو يعتز في اعماق نفسه بأنه غير متحيز وبأنه وجد التوازن الصحيح الذي يدعى بالتميز عن الوسط الممتاز . ومثل هذا البرجوازي الصغير يؤله التناقض لأن التناقض هو اساس جوهره . وهو نفسه لا يعدو ان يكون تجسيداً للتناقض الاجتماعي . ويجب عليه ان يبرر في النظرية ما هو عليه في الواقع العملي ، ومأثرة السيد برودون انه المعبر العلمي عن البرجوازية الصغيرة الفرنسية ؛ وانها لمأثرة فعلية لأن البرجوازية الصغيرة هي جزء لا يتجزأ مـن جميع الثورات الاجتماعية المقبلة .

وانى اود لو تسنح لي الفرصة لأرسل لك مع عده الرسالة كتابي عن الاقتصاد السياسي (٥٥) ، ولكني لم افلح حتى الآن لا في طبيع هذا العمل ، ولا في طبيع نقدى للفلاسفة والاشتراكيين الالمان \* الذي حدثتك عنه في بروكسل. وليس بوسعك ان تتصور اى مصاعب يصطدم بها هذا الطبع في المانيا ، اولا من قبل البوليس ، وثانيا من قبل الناشرين الذين هم انفسهم ممثلون ذوو مصلحة لجميع التيارات التي احميل عليها . اما فيما يخص حزبنا ، فهو ليس فقيراً وحسب ، بل ان قسماً كبيراً من اعضاء الحزب الشيوعي الالماني غاضبون على" فضلا عن ذلك لأني اعارض طوباوياتهم وبياناتهم الطنانة . . .

صدرت للموة الاولى بلغتها الاصلية في تصدر حسب نص الكتاب . كتاب: «م ، م ، ستاسوليفتش كتب باللغة الفرنسية ومعاصروه في مراسلاتهم» . المجلد ٣، سانت بطرسبورغ ، ۱۹۱۲

<sup>\*</sup> كادل ماركىس وفريدريك انجلىس . «الايديو لوجيسة الالمانية » . الناشر .

## من ماركس الى لودفيغ كوغلمان

في هانوفر

لندن ، ۱۲ نیسان (ابریل) ۱۸۷۱

. . . امس تلقينا نبأ لا يطمئن مفاده ان لافارغ (لا لورا) موجود في الوقت الحاضر في باريس .

واذا القيت نظرة الى الفصل الاخير من كتابي «الثامن عشر من برومير» \* رأيت اني اعلنت ان المحاولة التالية التي ستقوم بها الثورة الفرنسية ينبغي ان تتلخص فيما يلى : لا ينبغي نقل الآلة البيروقراطية العسكرية من يد الى يــد ، كما حدث حتى الآن ، بل تعطيمها ، وهذا هو على وجه التدقيق الشرط المسبق لكل ثورة شعبية فعلية في القارة . وفي هذا بالذات تقوم محاولة رفاقنا الباريسيين البواسل . ايــة مرونة ، اية مبادرة تاريخية ، ايـة مقدرة على التضحية بالنفس عنـد مؤلاء الباريسيين! فبعد مجاعة دامت ستة اشهر وبعد خراب تسببت به الخيانة الداخلية اكثر بكثير مما تسبب به العدو الخارجي ، ينتفضون تحت الحراب البروسية ، كأنما لم تدر رحى الحرب بين فرنسا والمانيا ، وكأن العدو لم يكـــن واقفاً على ابواب المثال! واذا ما غالبوا على امرهم ، فلن يكون الذنب في ذلك غير «شهامتهم» . فقد كان ينبغي الزحف فوراً على فرساي ، ما ان فر فينوا من باريس ، وفي اثره القسم الرجعي من الحرس الوطنى الباريسي ، لقد فنو "تت الفرصة بسبب الضميب

## من مارکس الی یوسف فیدیهایر

في نيويورك

لندن ، ٥ آذار (مارس) ١٨٥٢

. . . وفيما يخصني ، ليس في لا فضل اكتشاف وجود الطبقات في المجتمع المعاصر ولا فضل اكتشاف النضال فيما بينها . فقد سبقني بوقت طويل مؤرخون برجوازيون بسطوا التطور التاريخي لهذا النضال بينن الطبقات ، واقتصاديون برجوازيون بسطوا تركيب الطبقات الاقتصادي . وان الجديد الذي اعطيته يتلخص في اقامة البرهان على ما يأتي : ١ - ان وجود الطبقات لا يقترن الا بمراحل تاريخية معينة من تطود الانتاج ، ٢ - ان النضال الطبقي يفضي بالضرورة الى ديكتاتورية البروليتاريا ، ٣ - ان من الطبقات والى المجتمع الخالي تعني غير الانتقال الى القضاء على كل الطبقات والى المجتمع الخالي من الطبقات . . .

صدرت بنصها الكامــل للمرة الاولى في تصدر حسب المخطوطـة . مجلـــة «Jungsozialistische Blätter» كتبت باللغة الالمائية ۱۹۳۰

<sup>\*</sup> راجع هذه الطبعة ، الجزء الاول ، ص ٢٤٨\_٢١٨ . الناشر .

## من ماركس الى لودفيغ كوغلمان

#### في هانوفر

لندن ، ۱۷ نیسان (ابریل) ۱۸۷۱

تلقيت رسالتك . إنا في الوقيت الحاضر مشغول لما فوق رأسى . لهذا بضع كلمات فقط ، فانا لا افهم البتة كيف يمكنك ان تشبه مظاهرات البرجوازيين الصغار ١٣ à la حزيران (يونيو) عام ١٨٤٩ (٥٨) وخلافها بالنضال الحالي في باريس .

قد يكون من السهل جدا ، بالطبع ، صنع تاريخ العالم لـو كان النضال لا يقوم الا ضمن ظروف تؤدي حتماً الى النجاح . ومن جهة اخرى ، قد يتسم التاريخ بطابع صوفي جداً لو كانت «الصدف» لا تضطلع باي دور . فان هـذه الصدف تدخل هي ذاتها ، بالطبع ، كجزء لا يتجـــزا ، في المجرى العام للتطور وتوازنها صدف اخرى . ولكن التسارع والتباطؤ رهن بمقدار كبير بهذه «الصدف» التي ترد بينها ايضاً «صدفة» مثل طبع الناس الذين يقفون في البدء على رأس الحركة .

وهذه المرة لا يجبب البحث باي حال من الاحوال عسن «الصدفة» الحاسمة غير الملائم ق ظروف المجتمع الفرنسي العامة ، بل يجب البحث عنها في وجود البروسيين في فرنسا ، في وقوفهم على ابواب باريس بالذات . وهذا ما كان الباريسيون يعرفونه جيداً . وهذا ما كان يعرفه ايضاً الاوباش الفرساليون البرجوازيون . ولهذا وضعوا امام الباريسيين حلين لا ثالث

الحي . فلم يريدوا البدء بالعرب الاهلية كأن العرض المسيخ تيير لم يكن قد بدأ بالحرب الاهليـــة بمعاولته نزع سلاح باريس! الخطأ الثاني: ان اللجنة المركزية (٥٦) قد تنازلت عن صلاحياتها عاجلا جداً لكي تخلي المكان للكومونة . ومن جديد بفضل «الاستقامة» المدفوعة الى حد القلق المفرط! ومهما يكن من امر ، فان الانتفاضة الباريسية الحاليـــة ، حتى ولو قضى عليها ذئاب المجتمع القديم وخنازيره وكلابــــه السافلة ، هي باريس . فليقارنوا بهؤلاء الباريسيين المستعدين لمهاجمية السماء عبيد الامبراطورية الرومانية المقدسة الالمانية البروسية بمساخرها من قبل الطوفان التي تفوح منها رائح ـــة الثكنات والكنيسة واليونكر ، وتفوح منها ، اشد ما تفوح ، رائحة التفاهة وضيق الافق .

وللمناسبة . وردت في الطبعة الرسميسة لوثائق المعونات المالية المقدمة مباشرة من خزينة لويس بونابرت اشارة الى ان فوغت قبض في آب (اغسطس) ١٨٥٩ مبلغ ٤٠٠٠٠ فرنك! وقد ابلغت ليبكنخت هذا الامر لكي يستفيد منه في المستقبل.

بوسعك ان ترسل الي" هاكستهاوزن (٥٧) ، لأني اتلقى في الآونة الاخيرة بدون ضياع مختلف الكراريس وما شاكلها ، لا من المانيا وحسب ، بل حتى من بطرسبورغ ايضاً .

شكراً على ارسال مختلف الجرائد (ارجــو ارسال المزيد منها ، لأني اريد ان اكتب شيئًا ما عن المانيا والريخستاغ وما الى ذلك) .

تصدر حسب المخطوطـة . كتبت باللغة الالمانية

صدرت للمرة الاولى مع اختصارات في مجلــة «Die Neue Zeit» ، المجلـــد الاول ، العـــدد ٢٣ . شتو تغارت ، ١٩٠١\_ ١٩٠٢ . صدرت بنصها الكامل باللغة الروصية في كتاب ورسائل ماركس الى كوغلمان» ، عام ١٩٢٨

نضال . ولو تحقق الحل الثاني ، لكان تفسخ معنويات الطبقـــة العاملة كارثة اعظم بكثير من خسارة اي عدد كان من «الزعماء» . ويفضل كومونة باريس ، دخل نضال الطبقة العاملة ضد طبقة الرأسماليين ودولتها في مرحلة جديدة . واياً يكن مآل القضية المباشر هذه المرة ، فقد تم الظفر مع ذلك بنقطة انطلاق جديدة ذات اهمية تاريخية عالمية .

تصدر حسب المخطوطة . كتبت باللفة الالمائية

صدرت للمرة الاولى مع اختصارات في الاول ، العـــد ٢٣ . شتوتفارت ، ١٩٠١\_ ٠ مدرت بنصها الكامل باللغة الروسيـــة في كتاب ورسائل مارکس الی کوغلمان ، ، عام ۱۹۲۸

## من ماركس الى فريدريك بولته

#### في نيويورك

لندن ، ۲۳ تشرین الثانی (نوفمبر) ۱۸۷۱

. . . لقد اسست الاممية بغية الاستعاضة عن الشيه الاشتراكية ونصف الاشتراكية بمنظمة حقيقية للطبقة العاملة من اجل النضال . وان النظام الداخلي الاولي \* والبيان

التأسيسي \* يشيران فوراً الى هذا . ومن جهة اخرى ، ما كان في وسع الاممية ان تترسخ ، لو لم يكن مجرى التاريخ قد حطم التشيع . أن تطور التشييع الاشتراكي وتطور الحركة العمالية الحقيقية هما مناقضان دائماً احدهما للآخر . وليس للشبيع مبرر (تاريخي) الاطالما لم تنضج الطبقة العاملة لأجل التحرك التاريخي المستقل . وما ان تبلغ حد النضيج هذا حتى تمسى جميع الشبيع رجعية من حيث جوهر الامرر . وفضلا عن ذلك ، تكرر في تاريخ الاممية نفس ما يتكشف دائماً في التاريخ . فان ما شاخ يحاول ان يتجدد ويترسـخ في اطار الاشكال المنبثقة حديثاً .

ان تاريخ الاممية كان ايضاً عبارة عن نضال مستمر خاضه المجلس العام ضد الشيع وضد محاولات الهواية المبتذلة التي سعت الى التوطد داخل الاممية ذاتها خلافاً للحركة الحقيقية جرى بمقدار اكبر عـن طريق المفاوضات غير العلنية بين المجلس العام ومختلف الفروع .

وبما أن البرودونيين (الموتويليين) (٥٩) كانوا في باريس في عداد مؤسسي الجمعية ، فمن الطبيعي ان يكونوا قد وقفوا هناك في السنوات الاولى على رأس الحركة . وفيما بعد ، تشكلت مقابلهم ، هناك ايضاً ، بالطبع ، فرق جماعية ووضعية وغيرها

في المانيا - زمرة اللاساليين . وانا نفسى تراسلت في غضون سنتين مع شفيتسر الذائع الصيت ، وبرهنت له يما لا يقبل الجدل ان المنظمة اللاسالية منظمة متشبيعة محضة ، وانها ، بصفتها هذه ، معادية لتنظيم الحركة العمالية العقيقية الذي تسعى الاممية وراءه . ولكن كان له «مبرره» لكي لا يفهم هذا .

<sup>\*</sup> كارل ماركس ، «النظام الداخلي الموقت للجمعية » . الناشر .

<sup>\*</sup> كاول ماركس . «البيان التاسيسي لجمعية الشغيلة العالمية» . الناشي .

و IX تعطى الآن لجنة نيويورك سلاحاً شرعياً لأجل وضع حد لكل تشيع ولكل فرق الهواية المبتذلة ، ولأجل طردها عنـــد الاقتضاء . . .

٠٠٠ وبديهي أن للحركة السياسية للطبقة العاملة هدفها النهائي ، وهو الظفر بالسلطة السياسية في صالحها ؛ ولهذا الغرض ، لا بد" بالطبع من تنظيم تحضيري للطبقة العاملة يبلغ درجة معينة من التطور ، وينبثق ويتنامى من النضال الاقتصادي نفسه .

اما من الجهة الاخرى ، فان كل حركة تضاد فيها الطبقة العاملة ، بوصفها طبقة ، الطبقات السائدة ، وتجهد للتغلب عليها بالضغط من الخارج ، انما هي حركة سياسية . فان السعى ، مثلا ، بواسطة الاضرابات وخلافها ، الى اكراه بعض الرأسماليين في مصنع من المصانع او حتى في فرع من فروع الصناعة الى تقصير وقت العمل ، انما هو حركة اقتصادية بحتة ؛ اما الحركة التي تستهدف الاجبار على اصدار قانون بيوم العمل من ثماني ساعات ، والخ . ، فهي بالعكس حركة سياسية . وهكذا تنشأ في كل مكان ، من حركات العمال الاقتصادية المتفرقة ، حركة سياسية اي حركة طبقة تسعى وراء تحقيق مصالحها في شكل عام مشترك ، اي في شكل يتسم بقوة القانون بالنسبة للمجتمع كله . واذا كانت هذه الحركات تفترض بعض التنظيم التحضيري ، فانها من جهتها ، وبالقدر نفسه ، وسيلة لتطوير هذا التنظيم .

وحيث لم تحرز الطبقة العاملة بعد ما يكفي من النجاح في تنظيمها لأجل القيام بزحف حاسم على السلطة الجماعية ، اي على السلطة السياسية للطبقات السائدة ، ينبغي في كل حال اعدادها لهذا الغرض عن طريق التحريض الدائب ضد هذه السلطة واتخاذ موقف عدائي حيال سياسة الطبقات السائدة . والا بقيت الطبقة العاملة العوبة في ايدي الطبقات السائدة ، كما اثبتت ذلك ثورة ايلول (سبتمبر) في فرنسا ، وكما تثبته ، الى درجة معينة ، في اواخر ١٨٦٨ ، انتسب الروسى باكونين الى الاممية لكي ينشى في قلبها ، تعت قيادته بالذات ، اممية ثانية اسمها «حلف الديموقراطية الاشتراكية» (٦٠) . وقد ادعى ، وهو الذي لا يملك اي معارف نظرية ، بان يكون في هذه المنظمة الخاصة ممثل الدعاية العلمية للاممية ويجعل من هذه الدعاية اختصاصا تختص به مذه الاممية الثانية داخل الاممية .

كان برنامجه عبارة عن خليط من الافكار المأخوذة بصورة سطحية من هنا وهناك - المساواة بين الطبقات (!) ، الغاء حق الوراثة بوصف نقطة انطلاق الحركة الاجتماعية (نفايات سان سيمونية) ، الالعاد المفروض على اعضاء الاممية بوصفه عقيدة ، الخ . ؛ اما العقيدة الرئيسية (على النمط البرودوني) فهي الامتناع عن الاشتراك في العركة السماسية .

تلقاء الآن بدرجة معينة) في ايطاليا واسبانيا حيث المقدمات الفعلية للحركة العمالية قلما تطورت حتى الآن ، وكذلك بين بعض العقائديين الفارغين ، المدعين ، المغرورين ، في سويسرا الرومانية وفي بلجيكا .

ان السيد باكونين كان ولا يزال يرى في مذهبه (وهو هراء يتألف من مقاطع منتزعــة من مؤلفات برودون وسان سيمون وغيرهما) قضية من المرتبة الثانية ، مجرد وسيلة لأجل تعظيمه بالذات . ولكن اذا كان في الحقل النظري صفراً ، فهو في حقل التآمر من اربايه .

فقد اضطر المجلس العام طوال سنوات الى النضال ضد هذا التآمر (الذي حظي ، لدرجة معينة ، بتأييد البرودونيين الفرنسيين ولا سيما في فرنسا الجنوبية) . واخيراً سدد بقرارات الاجتماع الموسع - القرارات الاول والثاني و XVII 'XVI 'IX - ضربة مياها من زمان (٦١) .

وغنى عن البيان ان المجلس العام لن يدعم في اميركا ما يناضل ضده في اوروبا . فان القرارات الاول والثاني والثالث

اللعبة التي يفلح حتى الآن السيد غلادستون وشركاه في لعبها في انجلترا .

تصدر حسب المخطوطــة ونص الكتاب . كتبت باللغة الالمانية

صدرت للمرة الاولى مسع اختصارات في «Briefe und Auszüge aus Briefen von Joh. Phil. Becker, Jos Dietzgen, Friedrich Engels, Karl Marx und A. an F. A. Sorge und Andere».

شتوتفارت ، عام ١٩٠٦

صدرت بنصها الكامل باللغة الروسية في المؤ لفات الكاملة لكارل ماركس وفريدريك انجلس ، الطبعـة الاولى ، المجلد ٢٦ ، عام ١٩٣٥

# من ماركس الى اوغست بيبيل

### في غوبر توسبورغ

لندن ، ۲۰ حزیران (یونیو) ۱۸۷۳

لبس غوينر على الاطلاق ، بل رسالـة يورك الى غوينر ، ماركس ولا يسعه أن يجدها في الحال .

ليس غوبنر الاطلاق ، بل رسالة يورك الى غوبنر ، المكتوبة باسم اللجنة ، هي التي حملتنا هنا على التخوف من ان

تستغل قيادة الحزب - اللاسالية حتى مخ العظام ، مع الأسف -وجودك في السجن لكي تحول «Volksstaat» (٦٢) الى ضرب من «Neuer Social-Demokrat» (٦٣) «شريفية» . أن هذا القصد واضح تماماً من تصرفات يورك ؛ وبما ان اللجنة منحت نفسها حق تعيين المحررين واقالتهم ، فان الخطر كان ، بلا ريب ، كبيراً جداً . ثم ان نفي غوبنر العتيد اعطى امكانيات اوسع لأجل تحقيق هذه الخطط . وفي هذه الاحوال كان ينبغي لنا ان نعرف بكامل الدقة سير الامور ؛ ومن هنا هذه المراسلة . . .

اما فيما يخص موقف الحزب من اللاسالية ، ففي وسعك ، بالطبع ، ان ترى خيراً مناً اي تاكتيك يجب تطبيقه في كل حالة بمفردها . ولكنه يجب أن يؤخذ الامر التالي أيضاً بالحسبان . عندما يترتب ، كما ترتب عليك ان تنافس الى درجة معينة اتحاد العمال الالماني العام (٦٤) ، فمن السهل ان تشرع بايلاء الخصيم قدراً من الانتباء اكثر من اللزوم وان تعتاد التفكير به قبل كل شيء في اي مناسبة كانت . ولكن اتحاد العمال الالمان العام وحزب العمال الاشتراكي-الديموقراطي ، مأخوذين معا ، لا يشكلان بعد غير اقلية ضئيلة من الطبقة العاملة الالمانية . اما في رأينا ، الذي اكدت صحته خبرة سنوات عديدة ، فإن التاكتيك الصحيح في الدعاية لا يقوم في استمالة افراد او جماعات من اعضاء منظمات الخصم ، بل يقوم في التأثير على الجماهير الواسعة التي لم تجتذب بعد الى التنظيم . فان انساناً جديداً واحداً ننتزعـــه بانفسنا من الحالة البدائية لأثمن من عشرة مرتدين لاساليين يحملون دائماً معهم الى العزب عناصر من نظراتهم الخاطئة . ولـو كان من الممكن كسب الجماهير وحدها بدون زعمائها المعلس ، لكان ذلك افضل . ولكنه يتعين دائمًا ان نأخذ بالإضافة عددًا كبيراً جداً من امثال هؤلاء الزعماء المقيدين بتصريحاتهم العلنية السابقة ، أن لم يكن بآرائهم السابقة ، والذين يتوجب عليهم ، مهما كلف الامر ، ان يبينوا انهم لم يتنكروا لمبادئهم وان حزب العمال الاشتراكي-الديموقراطي يروج ، على العكس ، باللاسالية

من اعضاء الاممية أن هذا الحال سيستمر الى الابد . ولكننا كنا نعرف بكل وضوح انه لا بد للفقاعة ان تنفقع . والتصقت النفايات من كل شاكلة ونوع بالاممية . وتواقح المتشبيعون الموجودون في الاممية ، واساؤوا استغلالها ، أملا منهم في انه سيتاح لهم اقتراف اعظم الحماقات والسفالات . ولكننا لم نصبر على هذا . فقد كنا نعرف بكل وضوح انه لا بد للفقاعة ان تنفقع في يوم من الايام ، ولهذا بذلنا جهدنا ، لا لتأجيل الكارثة ، بل لاخراج الاممية منها نقية غير مزيفة . وقد انفقعت الفقاعة في لاهاي (٦٧) ، وانت تعرف ان اغلبية مندوبي المؤتمر قد تفرقوا وعادوا الى بيوتهم وهم في خيبة امل مريرة . والحال ، ان هؤلاء الذين خاب أملهم في ان يجدوا في الاممية المثال الاعلى للتآخي الشامل والمصالحة العامة ، قد اندفعوا جميعهم تقريب في مشاحنة اقسى من التي احتدمت في لاهاي ! والآن يدعو المشاحنون المتشبعون الى التصالح ويصيحون باننا نحن اناس مشاكسون ، ديكتاتوريون ! ولو اننا سعينا في لاهاي وراء المصالحة ، ولو اننا حلنا دون وقوع الانشقاق ، فأيا كانت العواقب ؟ لو اننا فعلنا ذلك ، لكان المتشيعون ، واعنى بهم الباكونينيون ، حصلوا على سنة اضافية من الوقت لكي يرتكبوا باسم الاممية قدراً من الحماقات والسفالات اكبر بكثير ؛ ولكان عمال اكثر البلدان تطورا اداروا ظهورهم باشمئزاز ؛ ولما كانت الفقاعة انفقعت ، بل لكانت تقلصت ببطء بفعل وخز الدبابيس ولكان تحول المؤتمر المقبل ، الذي كان ينبغى ان تنفجر فيه الازمة مع ذلك ، الى فضيحة بين اسفل اسافل الناس ، لأنه كان ضاحتى بالمبدأ في لاهاى ! ولكانت الاممية ملكت بالفعل آنذاك ، وهلكت بسبب «الوحدة»! - وعوضاً عن هذا ، ابعدنا ، لما فيه شرفنا ، العناصر المتعفنة ، - يقول اعضاء الكومونة الذين حضروا الجلسة الاخيرة ، الحاسمة ، ان اياً من جلسات الكومونة لم تحدث في نفوسهم انطباعاً فائق العادة كالذي احدثته هذه المحاكمة بحق خونة البروليتاريا الاوروبية ، -وقد اتحنا لهم الفرصة في سياق عشرة اشهر للكذب والافتراء

العقيقية . وهذا بالذات ما كان في ايزيناخ (٦٥) بلية - ربما كان لا مناص منها في ذلك الوقت - ولكن هذه العناصر اضرت الحزب بكل تأكيد ، وانا لا اعرف ما يلى : لو لم تنضم هذه العناصر الى الحزب ، هل كان الآن ، في اضعف تقدير ، اقل قوة . وعلى كل حال ، اعتبر من سوء الحظ لو تلقت هذه العناصر مددا . ولا يجوز لنا أن ندع الزعيق «بالاتحاد» يحيرنا ويربكنا. فان اولئك الذين اشد ما يرفعون هذا الشعار انما هم بالذات المبادرون الرئيسيون الى الخلافات ؛ وانهم لكذلك الباكونينيون الحاليون من المنطقة السويسرية من جبال جورا ، المبادرون الى جميع الانشىقاقات ، والذين يزعقون ، اشد ما يزعقون ، بالاتحاد . ان انصار الاتحاد المتعصبين هؤلاء هم إمّا اناس محدودون يرغبون في خلط كل شيء في خليط غير واضح حسبه ان يترسب حتى تبرز التناقضات من جديد بشكــل احد ، لأن جميــع هذه العناصر ستظهر آنذاك في مرجل واحد (وعندكم في المانيا مثال ممتاز بشخص السادة الذين يروجون بالتوفيق بين العمال وصغار البرجوازيين) ، وإمَّا اناس يرغبون عن غير وعي (ميوليرغر ، مثلا) او عن وعى في تزييف الحركة . ولهذا يعمد المتشبعون المدمنون وكبار الغشاشين والميالين الى المشاحنة ، في اوقات معينة ، الى الزعيق بالاتحاد باشد مما يزعق الجميع . ونحن لم نر في حياتنا من احد منغصات وحيل اكبر من التي رايناها من دعاة الاتحاد الصبياحين .

يقيناً ان كل قيادة حزبية تسعى وراء النجاح ، وهذا حسن جداً . ولكنه تطرأ ظروف لا بد فيها من الرجولة للتضعية بالنجاح الفوري من اجل امور أهم . وان حزباً ، كحزبنا على الاخص ، الذي نجاحه النهائي مضمون اطلاقاً والذي نما في زمننا وامام عيوننا نمو العمالقة ، لا يحتاج البتة دائماً وبلا قيد ولا شرط الى النجاح الفوري . خذ ، مثلا ، الاممية (٦٦) . لقد احرزت نجاحاً هائلا بعد الكومونة ، واذا البرجوازيون ، كأنما أصماتهم العاصفة ، يعلنون انها كلية الجبروت ، وظنت الاغلبية الساحقة العاصفة ، يعلنون انها كلية الجبروت . وظنت الاغلبية الساحقة

والتآمر بكل ما يملكون من القوى ؛ ولكن ماذا كان الحاصل ؟ ان هؤلاء الممثلين المزعومين للاغلبية الهائلة من الاممية يصرحون الآن هم انفسهم انهم لن يتجاسروا على حضور المؤتمر المقبل (التفاصيل في مقال ارسله في آن واحد مع هذه الرسالة من اجل فولكسشيتات «Volksstaat» \*) . واذا ما اضطررنا الى العمل مرة

اخرى ، لما سلكنا عموماً واجمالا سلوكا آخر ؛ ولكن الاخطاء التاكتيكية هي دائماً بالطبع امر ممكن .

وعلى كل حال ، انا واثق بان خيرة العناصر من عداد اللاساليين ستقع من تلقاء نفسها في ايديكم مع ممر الزمن ؛ ولهذا ليس من الصواب قطف الثمرة قبل ان تنضج ، كما يريد ذلك انصار الاتحاد المناحيس.

وعلى كل حال ، قال هيغل العجوز في زمنه ان الحزب يبرهن على حيويته باقدامه على الانشقاق وبقدرتـــه على الصمود لهذا الانشقاق (٦٨) . ان حركـــــة البروليتاريا تمر حتماً بمختلف درجات التطور ؛ وفي كل درجة يتوقف قسم من الناس ولا يمضى الى ابعد . وهذا هو السبب الوحيد الذي يوضح لنا لماذا يتحقق «تضامن البروليتاريا» في الواقع وفي كل مكان في صورة تكتلات حزبية مختلفة يخوض بعضها ضد بعض نضال حياة او موت ، مثلها مثل الشبيع المسيحية في الامبراطورية الرومانية في مرحلة اقسى الملاحقات .

كذلك ينبغي ألا يغيب عن بالك انه اذا كان عدد المشتركين في «Neuer Social-Demokrat» مثلا ، اكبر منه في «Volksstaat» فمرد هذا الى ان التعصب الاعمى ملازم حتماً لكل شبيعة ، وبفضل هذا التعصب الاعمى ، - ولا سيما حيث الشبيعة جديدة (كاتحاد العمال الالمان العام في شيلزفيغ-غولشتاين ، مثلا) - تحرز نجاحات فورية اكبر بكثير من النجاحات التي يحرزها حزب يمثل بكل بساطة الحركة الفعلية ،

بدون اي اوهام تشبيعية . ولكن التعصب الاعمى ليس طويل العمر .

انهي رسالتي ، فالبريد يوشك ان يمضي . بعجلة اكتب لك عن امر آخر : ماركس لا يستطيع ان ينصرف الى لاسال (٦٩) قبل ان تنتهي الترجمـــة الفرنسية (في اواخر تموز - يوليو -تقريباً) ، فضلا عن ان بأمس الحاجة الى الراحة لأنه مرهق

تصدر حسب المخطوطة . كتبت باللغة الالمانية صدرت للمرة الاولى مسع اختصارات في

F. Engels. «Politisches Vermächtnis. Aus unveröffentlichen

صدرت بنصها الكامل باللغة الروسية في مجلة «بولشفيك» ، العدد ١٠ ، عام 1944

# من مارکس الى ولهلم بلوس

في هامبورغ

لندن ، ۱۰ تشرين الثاني (نوفمبر) ۱۸۷۷

. . . انا «لا اغضب» (كما يقول هينه) \* وكذلك انجلس (٧٠) . فكلانا لن يدفع ، وان متليكا عتيقاً ، من اجل الشعبية . اليك ، مثلا ، برهاناً : لاشمئزازي من كل عبادة للفرد ، لم اسمع

<sup>\*</sup> فريدريك انجلس . «في الاممية» . الناشر .

<sup>\*</sup> هينه ، حلقة «الفاصل الغنائي» ، القصيدة الثامنـــة عشرة . الناشر .

يوماً طوال وجود الاممية ، بنشر الرسائل العديدة التي كانت تعترف بافضالي والتي ازعجوني بها من مختلف البلدان ، بل اني لم ارد عليها ابداً ، الا اني في حالات نادرة قر عت مرسليها . وعندما انتسبنا انجلس وانا للمرة الاولى الى جمعية سرية للشبيوعيين \* ، وضعنا شرطاً لا محيد عنه ، وهو ان يشطب من النظام الداخلي (٧١) كل ما يسهم في عبادة اعاظم الرجال الخرافية (وفيما بعد ، اتبع لاسال سلوكا معاكساً تماماً) . . .

صدرت للم رة الاولى في مجل ق كتبت باللغة الالمانية «Der Wahre Jacob» العدد ١٥٥٥ (٦) ١٧ آذار (مارس) ١٧ آذار (مارس) 19.1

# من انجلس الى كارل كاوتسكى

في فيينا

لندن ، ۱۲ ایلول (سبتمبر) ۱۸۸۲

. . . انك تسالني ما هو رأي العمال الانجليز في السياسة الاستعمارية . انه تماماً نفس رأيهم في السياسة بوجه عام : اي نفس رأى البرجوازيين فيها . فلا يوجد هنا حزب عمالي ، انما يوجد فقط حزب محافظ وحزب ليبيرالي راديكالي ؛ اما العمال فانهم يتمتعون معهما بكل هدوء باحتكار انجلترا الاستعماري وباحتكارها في السوق العالمية . واني ارى ان المستعمرات بكل معنى الكلمة ، اي الاراضى التي يشغلها الاوروبيون ، وهي

كندا والكاب \* واوستراليا ستغدو جميعها مستقلة ؛ اما البلدان المستعبدة فعللا والتي يقطنها سكانها الاصليون ، الهند والجزائر والممتلكات الهولنديسة والبرتغالية والاسبانية ، فانه يقتضى لها ، بالعكس ، ان تأخذها البروليتاريا في يدها لفترة من الزمن وتسير بها بأسرع ما يمكن نحو الاستقلال . من الصعب القول كيف ستتطور هذه الحركة . فقد تقوم الهند بشورة بل ان هذا الامر جد معتمل ، ولما كانت البروليتاريا بسبيل التحرر لا تستطيع خوض حروب استعمارية ، فينبغي القبول بالثورة ، ومع ذلك فأن الثورة لن تتم ، بالطبع ، دون شبتي انواع التدمير . ولكن مثل هذا الامر ملازم لكل ثورة . وقد يجري الشيء نفسه في بلدان اخرى ايضاً ، مثلا ، في الجزائر وفي مصر ، وهذا سيكون بالنسبة لنا ، وبكل تأكيد ، خير حل . اذ سيترتب علينا القيام باشياء كثيرة عندنا . ان اعادة تنظيم اوروبا واميركا الشمالية توفر لنا فورا قوة هائلة ومثالا بليغا الى حد أن البلدان شبه المتمدنة ستسير من تلقاء نفسها وراءنا ؛ والحاجات الاقتصادية وحدها تتعهد بهذه المهمة . ولكن اية اطوار اجتماعية وسياسية يترتب على هذه البلدان اجتيازها قبل ان تبلغ ايضاً التنظيم الاشتراكي ، فهذا ما لا نستطيع اليوم ، كما اعتقد ، ان نجيب عليه الا بفرضيات لا طائل تحتها . غير ان ثمة امراً لا يقبل الشبك ، هو ان البروليتاريا الظافرة لا تستطيع ان تفرض اية سعادة على شعب اجنبي دون ان تقوض بذلك انتصارها بالذات . وطبيعي أن ذلك لا ينفى أبدا قيام حروب دفاعية ذات طبيعة متنوعة . . .

صدرت للمررة الاولى بنصها الكامل تصدر حسب المخطوطة . باللغة الروسية في «ارشيف ماركس كتبت باللغة الالمائية وانجلس» ، المجلد الاول ، (القصــل السادس) عام ۱۹۳۲

<sup>\*</sup> \_ اقليم الك\_اب (الرجاء الصالح) في افريقيا الجنوبية . الثاشر .

<sup>\*</sup> \_ عصبة الشيوعيين . الناشر .

33

## من انجلس الى كونراد شهيدت

### في برلين

لندن ٥ آب (اغسطس) + ١٨٩

. . . قرأت في مجلة «Deutsche Worte» الصادرة في فيينا نقداً لكتاب باول بارت (٧٢) بقلم المنحوس موريس فيرت (٧٣) ؛ وقد ترك هذا النقد في نفسى انطباعاً غير مستطاب عن الكتاب نفسه ايضاً . اني سأراجعه ولكنه يجب على ً ان اقول انه اذا كان موريس يستشهد به بصورة صحيحة ، فان بارت يزعم انه لم يستطع ان يجد في جميع مؤلفات ماركس غير مثال واحد على تبعية الفلسفة وغيرها لظروف الوجود المادية ، واعني بذلك كون ديكارت يعلن ان الحيوانات آلات . انا ، بكل بساطة ، آسف لرجل يكتب اشياء كهذه . وبما ان هذا الرجل لما يفهم واقع ان كون ظروف الوجود المادية primum agens \* لا ينفى ان يكون للميادين الايديولوجية بدورها تأثير مقابل ، ولكن ثانوي ، على هذه الظروف المادية ؛ وبما ان هذا غير واضح له ، فهو عاجز عن ان يفهم ايضاً الموضوع الذي يكتب عنه . ولكن كل هذا - واكرر قولي - ليس من المصدر الاولى ، اما موريس فهو صديق خطر . ولدى المفهوم المادي عن التاريخ الآن كثرة من امثال هؤلاء الاصدقاء الذين يشكل هذا المفهوم بالنسبة لهم ذريعة للامتناع عن دراسة التاريخ . ان الحال يشبه الآن تماماً ما كان عليه عندما تحدث ماركس عن «الماركسيين»

الفرنسيين من اواخر العقد الثامن : «انا اعرف امرأ واحداً فقط ، هو انى لست ماركسيا» .

كذلك قام في «Volks-Tribüne» نقاش حول توزيع المنتوجات في المجتمع المقبل: أيتحقق وفقاً لكمية العمل ام بطريقة اخرى . وقد تناولوا المسألة بطريقة «مادية» بحتــة ايضاً خلافًا للجمل المثالية المعروفة عن العدالة . ولكنه لم يخطر في بال احد ، مهما بدا هذا مستغرباً ، ان اسلوب التوزيع يتوقف بصورة جوهرية على كمية المنتوجات التي ينبغسي توزيعها ، وان هذه الكمية تتغير بالطبع تبعاً لتقدم الانتاج وتنظيم المجتمع ، وانه لا بد" بالتالي ان يتغير اسلوب التوزيع ايضاً . ولكن جميع المشتركين في النقاش لا يعتبرون «المجتمع الاشتراكي» شبيئاً يتغير ويتقدم باستمرار ، بل يعتبرونه شبيئاً ثابتاً ، اقيم مرة واحدة والى الابد ، وانه ينبغى له بالتالى ان يكون لديه كذلك اسلوب للتوزيع اقيم مرة واحدة والى الابد . ولكن اذا فكر المرء تفكيراً سليماً ، امكنه مع ذلك : ١ - ان يحاول البحث عن اسلوب للتوزيع يجب البعه منه و٢ - ان يحاول ايجاد الاتجاه العام للتطور اللاحق . ولكنى لا اجد اي كلمة عن هذا في النقاش كله .

ان كلمة «المادي» هي على العموم بالنسبة لكثيرين من الكتاب الشباب في المانيا كلمة بسيطة يطلقونها على كل ما يطيب لهم ، دون ان يكلفوا انفسهم عناء الدراسة باطراد ، اى انهم يلصقون هذا النعت ويعتبرون انهم حلوا المسألة بذلك . ولكن مفهومنا للتاريخ هو في المقام الاول مرشد للدراسة ، وليس رافعًا للبناء على طريقة الهيغلية . ينبغى لنا أن ندرس التاريخ كله من جديد ، ينبغى لنا ان نبحث بالتفصيل ظروف وجود التشكيلات الاجتماعية المختلفة ، قبل ان نحاول ان نستخلص منها مفاهيم سياسية وحقوقية وجمالية وفلسفية ودينية وما الى ذلك ، مناسبة لها . وما تحقق في هذا المضمار حتى الآن قليل لأن عدداً قليلا جداً من الناس عكفوا على ذلك

# من انجلس الی اوتو بونیغك

### في بريسلافل \*

فولکستون بجوار دوفـــر ، ۲۱ آب (اغسطــس) ۱۸۹۰

. . . لا استطيع الجواب عن اسئلتك الا بايجاز وبالخطوط الكبرى ، والا فأن الجواب عن السؤال الاول يتطلب مني كتابة بحث كامل .

١- أن ما يسمى «المجتمع الاشتراكي» ليس ، حسبما اعتقد ، شيئاً ما اعطي مرة واحدة والى الابد ، بل ينبغي اعتباره ، مثله مثل كل نظام اجتماعي آخر ، قابلا لتغيرات وتحولات دائمة ، ان ميزته الفاصلة عن النظام الحالي تقوم بالطبع في تنظيم الانتاج على اساس الملكية العامة لامة واحدة في البدء لجميع وسائل الانتاج ، وانا لا ارى اي مصاعب على الاطلاق تعترض سبيل تحقيق هذا الانقلاب غدا بالذات ، اذ ان المقصود تحقيقه تدريجياً ، واما ان عمالنا قادرون على هذا فتثبته جمعياتهم العديدة للانتاج والاستهلاك التي تدار حسنا مثل الشركات المساهمة البرجوازية ، بل بصورة اكثر استقامة بكثير ، حيث لم يقوضها البوليس قصداً وعمداً ، ولا يسعني الناهم كيف يمكنك الحديث عن جهل الجماهير في المانيا بعد

\* واسمها حاليا : فروتسلاف . الناشر .

بصورة جدية ، ونحن في هذا المضمار بحاجة الى عون كبير ، فالميدان رحب الى ما لا نهاية ، وان من يريد ان يشتغل بصورة جدية يمكنه ان يفعل كثيراً ويبرز . ولكن عوضاً عن هذا ، لا يشكل الكلام عن المادية التاريخية (فمن الممكن تحويل كل شيء الى كلام بكلام) عند كثيرين من الالمان من جيل الشباب غير ذريعة لتصنيف وترتيب معارفهم التاريخية الخاصة ، القليلة جداً نسبياً (فالتاريخ الاقتصادي لا يزال بعد في الاقمطة !) باسرع ما يمكن ، وثم للاغترار بانفسهم بوصفهم من اعاظم الرجال . وآنذاك يمكن ان يظهر رجل ما من طراز بارت ويعكف على ما انحط في بيئته ، على كل حال ، الى جملة فارغة .

ولكن كل هذا سيجرى اصلاحه بالطبع . فنحن الآن في المانيا نملك من القوة ما يكفي لاحتمال الكثير . ومن اعظــم الخدمات التي قدمها لنا القانون ضد الاشتراكيين (٧٥) ، إنه حررنا من لجاجة الطالب الالماني الاشتراكي الصبغة : ونحن الآن نملك من القوة ما يكفي لاحتمال هذا الطالب الالماني ايضاً الذي اخذ من جديد يشمخ بأنفه كثيراً . وانت الذي فعلت شيئاً حقاً وفعلا ، لاحظت بنفسك ، اغلب الظن ، بين الادباء الشباب المرتبطين بالحزب ، اي عدد قليل منهم يكلفون انفسهم عناء دراسة الاقتصاد السياسي وتاريخ الاقتصاد السياسي ، وتاريخ التجارة والصناعة والزراعة والتشكيلات الاجتماعية . وهل هناك كثيرون منهم يعرفون عن مورير اكثر من مجرد اسمه ! لا بد" لاعجاب الصحفي بنفسه ان يذلل كل شيء ، وهذا ما تطابقه النتائج . ان هؤلاء السادة يتصورون ان كل شيء يصلح للعمال . ولكني اود لو يعرفون ان ماركس كان يعتبر ان خيرة اعماله ليست مع ذلك جيدة بالقدر الكافي لأجل العمال ، وانه كان يعتبر تقديم شيء للعمال ليس افضل الاشياء جريمة ! . .

صدرت للمرة الاولى بنصها الكامل في تصدر حسب المخطوطة . مجاــة «Sozialistische Monatshefte» كتبت باللغة الالمانية العدد ۱۹\_۱۸ ، عام ۱۹۲۰ متفاوتة من السرعة او البطء . اما في ميدان الانتاج الكبير ، فاننا سنكون اسياد الوضع .

انت تتحدث عن فقدان الادراك المناسب . ان هذا واقع ، ولكنه من جانب المتعلمين المتحدرين من اوساط النبلاء والبرجوازيين ، والذين لا يتصورون حتى اي قــدر كبير من الاشياء لا يزال يترتب عليهم ان يتعلموه من العمال . . .

تصدر حسب المخطوطـة . كتبت باللغة الالمانية

صدرت للمسرة الاولى بنصها الكامسل باللغة الروسية في مجلة «مسائل تاريخ الحزب الشيوعي السوفييتي» ، العــدد ٢ ، عام ١٩٦٤ ، وبلغة الاصل في مجلة «Beiträge zur Geschichte der deutschen Arbeiterbewegung»

العدد ٢ ، عام ١٩٦٤

# من انجلس الى يوسف بلوخ

## في كونيفسبرغ

لندن ، ۲۱ [-۲۲] ايلول (سبتمبر) ١٨٩٠

. . . وفقاً للمفهوم المادي عن التاريخ ، يشكل انتاج وتجديد انتاج الحياة الفعلية العنصر الحاسم ، في آخر المطاف ، في العملية التاريخية . واكثر من هذا لم نؤكد في يوم من الايام ، البرهان الساطع الذي قدمه عمالنا على نضجهم السياسي في غمرة النضال المظفر ضد القانون بشأن الاشتراكيين . واني ارى الغطرسة العلمية المزعومة عند من يسمون بالمتعلمين عقبة جدية اكبر بكثير . يقيناً انه ليس لدينا بعد العدد الكافي من التكنيكيين والمهندسين الزراعيين والمهندسين والكيماويين والمعماريين ، الخ . ، ولكن بمقدورنا في اسوا الاحتمالات ان نشيتريهم من اجلنا كما يفعل الرأسماليون ؛ واذا ما عوقب بعض الخونة – الذيــــن سيظهرون حتمــــاً في هذا المجتمــــع – العقاب اللازم عبرة لغيرهم ، فانهم سيدركون ان من مصلحتهم بالذات ان يكفوا عن سرقتنا . ولكن باستثناء هـؤلاء الاختصاصيين الذين اصنف ايضا معلمي المدارس في عدادهم ، نستطيع تماماً ان نستغني عن «المتعلمين» الباقين ؛ وعلى سبيل المثال اذكر ان تدفق الادباء والطلاب القوي الحالي على التشريع المدرسي القائم ، دفعوا الناس الى هذا العد من الاطارات اللازمة .

واذا توفرت القيادة التكنيكية اللازمة ، يمكن بدون جهد تأجير لاتيفونديات اليونكر في شرقي نهر الالب من العمال المياومين والاجراء الزراعيين العاليين ، ويمكن استثمارها حسب المبادئ الجماعية . اما اذا حدثت في هذه الحال تجاوزات ما ، فان المسؤولين عنها هم السادة اليونكر الذين ، رغم كل التشريع المدرسي القائم ، دفعوا الناس الى هذا الحد من التوحش .

والعقبة الكبرى سيكونها الفلاحون الصغار واولئك المتعلمون اللجوجون الفائقو الذكاء الذين يتظاهرون بانهم يعرفون كل شيء بقدر ما يقل ادراكهم لهذه المسألة .

وهكذا متى توفر العدد الكافي من الاتباع بين الجماهير ، سيكون من الممكن تحويل الصناعة الكبيرة والزراعة الكبيرة من طراز اللاتيفونديات بسرعة كبيرة الى ملكية عامة ، لأن السلطة السياسية ستكون في ايدينا . واثر هذا يأتي الباقي بدرجات

لا ماركس ولا انا . اما اذا شوه احدهم هذه الموضوعة بمعنى ان العنصر الاقتصادي هو ، على حد زعمــه ، العنصر العاسم الوحيد ، فانه يحول هذا التأكيد الى جملة مجردة ، لا معنى لها ، ولا تدل على شيء . أن الوضع الاقتصادي أنما هو الاساس ، ولكن مختلف عناصر البناء الفوقي تؤثر هي ايضاً في مجرى النضال التاريخي ، وتحدد على الاغلب شكله في كثير من الاحيان ؛ ونقصد بهذه العناصر : اشكال النضال الطبقي السياسية ونتائجه -النظام السياسي الذي تقيمه الطبقة الظافرة بعد كسب المعركة ، وما الى ذلك - والاشكال العقوقية وحتى انعكاس جميع هذه المعارك الفعلية في عقول المشتركين فيها ، والنظريات السياسية والحقوقية والفلسفيـــة ، والآراء الدينية وتطورهــــا اللاحق وصيرورتها نهجًا من العقائد . وجميع هذه العناصر تتفاعل ، وفي هذا التفاعل تشبق الحركة الاقتصادية لنفسها في آخر المطاف ، بوصفها حركة ضرورية ، طريقاً عبر كثرة لا عد لها من الصدف (اي من الاشياء والاحداث التي صلتها الداخلية بعيدة او عسيرة البرهان الى حد انه يمكننا اهمالها واعتبارها غير موجودة) . والا كان تطبيق النظرية على اي من المراحل التاريخية اسهل من حل معادلة بسيطة من المرتبة الاولى .

نحن نصنع تاريخنا بانفسنا ، ولكننا ، اولا ، نصنعه في ظل مقدمات وظروف محددة جداً ، الاقتصادية منها هي العاسمة في آخر المطاف. ولكن الظروف السياسية وغيرها، وحتى التقاليد التي تعيش في رؤوس الناس ، تلعب هـي ايضاً دوراً معيناً ، وان لم يكن الدور الحاسم . فان الدولة البروسية قد نشأت وتطورت كذلك بفضل اسباب تاريخيــة ، واقتصادية في آخر المطاف . ولكن هل يسم المرء ، ان لم يكن دعياً ، ان يزعم ان براندنبورغ بالذات كانت معدة بين الدويلات الصغيرة الكثيرة في المانيا الشمالية للقيام بدور دولة كبرى تتجسد فيها الفوارق الاقتصادية واللغوية ، ثم الدينية منذ الاصلاح ، بين الشمال والجنوب وان هذا قد حددته سلفًا الضرورة الاقتصادية وحدها ،

بينا العناصر الاخرى لم تمارس اي تأثير (وفي المقام الاول منها ، واقع انجرار براندنبورغ الى ميدان الشؤون البولونية بفضل امتلاكها لبروسيا ، وعبر الشؤون البولونية الى ميدان العلاقات السياسية الدولية التي كانت حاسمة كذلك عند تشكيل ممتلكات البيت النمساوي) . وهل يفلح احد ، ان لم يجعل من نفسه اضحوكة ، في ان يفسر من الناحية الاقتصادية وجود كل دويلة المانية صغيرة في الماضي وفي العاضر او منشأ تحرك الاصوات الساكنة في المانيا العليا الذي حول الانقسام الجغرافي بسبب السلسلة الجبلية الممتدة من السوديت الى تاونوس ، الى شق حقيقى يعبر المانيا بأسرها .

ثانياً ، ينصنع التاريخ بنحو تحصل معه النتيجة النهائيـة دائماً من تصادم كثرة من الارادات الفردية ، مع العلم ان كلا من هذه الارادات تصبح ما هي عليه بالفعل ، وذلك من جديد بفضل طائفة من الاحوال الحياتية الخاصة . وهكذا يوجد عدد لا يحصى من القوى المتشابكة ، مجموعة لا نهاية لها من متوازيات اضلاع القوى ، ومن هذا التشابك تنجم قوة منحصًلة واحدة هي الحدث التاريخي . وهذه النتيجة يمكن ايضاً اعتبارها نتاج قوة واحدة تفعل فعلها ككل واحد ، بلا وعي ولا ارادة . ذلك ان ما يريده امرؤ يلقى المعارضة من جانب اي امرى "آخر ، وتكون النتيجة النهائية ظهور شيء لم يرغب فيه احد . وعلى هذا النحو يسير التاريخ ، كما سار حتى الآن ، اشبه بتطور طبيعي ، ويخضع ، من حيث جوهر الامر ، لنفس قوانين الحركة . ومن هذا الواقع ، وهو ان ارادات مختلف الافراد الذين يريد كل منهم ما تدفعه اليه بنيته الجسدية والظروف الخارجية ، اي الاقتصادية في آخر المطاف (او ظروفه الخاصة الشخصية او الاجتماعية العامة) - ان هذه الارادات لا تبلغ ما تريده ، بل تتمازج في شيء وسط ، في قوة منحصًلة مشتركة واحدة ، - من هذا ، لا يجوز مع ذلك الاستنتاج ان هذه الارادات تساوي صفراً . بل بالعكس . فان كل ارادة تشترك في القوة المحصِّلة وتندرج فيها بالقدر نفسه .

# من انجلس الى كونراد شهيدت

## في برلين

لندن ، ۲۷ تشرين الاول (اكتوبر) ۱۸۹۰

عزيزي شميدت!

استغل اول دقيقة حرة لكي اجيبك . اني اعتقد انك تسلك سلوكا صحيحاً اذا قبلت اقتراح «Züricher Post» (٧٦) . ففي وسعك ان تتعلم هناك شيئاً ما في ميدان الاقتصاد ، ولا سيما اذا لم يغب عن بالك ان زوريخ ليست غير سوق للنقود والمضاربة من المرتبة الثالثة ، ولهذا تضعف جميع الانطباعات الناجمة هناك ، من جر"اء انعكاسها للمرة الثانية والثالثة او تنسو"ه قصداً وعمداً . ولكنك ستطلع في الواقع على الآلية كلها وستضطر الى تتبع تقارير البورصة من مصادرها الاولى ، - من لندن ونيويورك وباريس وبرلين وفيينا ، وآنذاك تظهر امامك السوق العالمية في انعكاسها بوصفها سوقاً للنقود وسوقاً للاوراق المالية . أن حال الانعكاسات الاقتصادية والسياسية وغيرها من الانعكاسات يشبه تماما حال الانعكاسات في العين البشرية . فهي تجري عبر عدسة جامعة ولهذا تبدو بشكل مقلوب ، راساً على عقب . الا انه لا وجود للجهاز العصبي الذي يوقفها من جديد على عقبها امام ابصارنا . أن رجل البورصة لا يرى حركة الصناعة والسوق العالمية الافي الانعكاس المقلوب رأساً على عقب لسوق النقود وسوق الاوراق المالية ، ولهذا تغدو النتيجة بنظره سبباً . وهذا ما سبق لى ولاحظته في

ثم ارجوك ان تدرس هذه النظرية في مصادرها الاولى ، لا بالواسطة ، - لأن هذا ، والحق يقال ، اسهل بكثير . ان ماركس لم يكتب شيئاً لم تضطلع فيه هذه النظرية بدور . وان «الثامن عشر من برومير لويس بونابرت» هو ، على الاخص ، مثال بديع على تطبيق هذه النظرية . كذلك يشتمل «راس المال» على كثرة من الاشارات اليها . ثم اني على حق ، اغلب الظن ، في الاشارة الى مؤلفي" : «السيد اوجين دوهرينغ يقلب العلم» و«لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» اللذين قدمت فيهما عرضاً للمادية التاريخيــة هو ، حسب علمي ، اكثر العروض الموحودة تفصيلا واسهايا .

وماركس وكذلك انا مسؤولان جزئياً عن كون الشباب يعلقون احيانًا على الجانب الاقتصادي اهمية اكبر مما يجب . وقد اضطررنا ، اثناء الاعتراض على اخصامنا ، الى تأكيد المبدأ الرئيسي الذي انكروه ، ولكننا كنا دائماً لا نجد الوقت والمكان والامكانية لتقدير العناصر الباقية المشتركة في التفاعل حق قدرها . التاريخية ، اي حد التطبيق العملي ، حتى تغير الحال ، ولم يبق من الممكن هنا ان يقع اي خطأ . ولكن ، مع الاسف ، يعتقدون في غالب الاحيان انهم فهموا النظريـــة الجديدة فهما تاماً وان بوسعهم تطبيقها على الفور ما ان يستوعبوا موضوعاتها الاساسية ، مع العلم انهم لا يستوعبونها دائماً بصورة صحيحة . وعلى هذا استطيع ان الوم كثيرين من «الماركسيين» الجدد ؛ اذ انه بفضل هذا ايضاً نشأ تشوش مدهش . . .

تصدر حسب المخطوطة . كتبت باللغة الالمانية

صدرت للمرة الاولى في مجلة «Der Sozialistische Akademiker» العاد ١٩ ، عام ١٨٩٥

الهدف من استيلاء البرتغاليين والهولنديين والانجليز على الهند من عام ١٥٠٠ الى عام ١٨٠٠ هو الاستبراد من الهند. اما التصدير الى الهند ، فلم يفكر به احد . ومع ذلك ، اي تأثين مقابل هائل في الصناعة كان لهذه الاكتشافات والفتوحات التي دفعت اليها المصالح التجارية الصرف : فان الحاجة الى التصدير الى هذه البلدان هي وحدها التي خلقت الصناعة الكبيرة وطورتها. كذلك الحال فيما يخص سوق النقود . فما ان تنفصل تجارة النقود عن تجارة البضائع حتى تكتسب – في ظروف معينة يحددها الانتاج وتجارة البضائع ، وضمن هذه الحدود - تطوراً خاصاً بها ، وحتى تغدو لها قوانين خاصة واطوار خاصة تحددها طبيعتها الخاصة . وعندما تتسع تجارة النقود ، فضلا عن ذلك ، خلال تطورها ، حتى تشمل تجارة الاوراق المالية - مع العلم ان هذه الاوراق المالية لا تتألف من سندات الدولة فقط ، بل تتألف ايضاً من اسهم مؤسسات الصناعة والنقليات ، وان تجارة النقود تظفر بالتالي بالسيادة المباشرة على قسم من الانتاج الذي يسود عموماً واجمالا عليها ، - عند ذاك يصبح التأثير المقابل لتجارة النقود على الانتاج اقوى واعقد . ان تجار النقود هم مالكو السكك الحديدية والمناجم ومصانع التعدين ، والغ . . أن وسائل الانتاج هذه تكتسب طابعاً مزدوجاً : فان عملها يجب ان يتكيف تارة لمصالح الانتاج المباشر ، وطوراً لمطالب المساهمين لأنهم هم اصحاب مصارف . واسطع مثال على هذا ، السكك الحديدية في اميركا الشمالية . فأن كل عملها رهن في الوقت العاضر بعمليات البورصة التي يقوم بها جاي غولد او فندربيلت او اي آخر ، وهي عمليات غريبة تماماً عن نشاط سكة بعينها وعن مصالحها بوصفها وسيلة للمواصلات . وحتى هنا ، في انجلترا ، شاهدنا صراعاً استمر طوال عشرات السنين بين مختلف شركات السكك الحديدية بسبب تعيين حدود اراضيها ، صراعاً انفقت في

سياقه اموال طائلة ، لا في مصلحة الانتاج والنقليات ، بل بوجه

سنوات العقد الخامس في منشستر : فان تقارير بورصة لندن لم تكن تصلح اطلاقاً لتكوين فكرة بموجبها عن سير تطور الصناعة وعن نقاطها العليا والدنيا الدورية ، لأن هؤلاء السادة كانوا يحاولون تفسير جميع الظاهرات بازمات سوق النقود التي كانت هي نفسها بمعظمها مجرد اعراض . كان المقصود آنذاك انكار منشاً الازمات الصناعية من فيض الانتاج الموقت انكاراً تاماً ، ولهذا كان للمسألة ، فضلا عن ذلك ، جانب متغرض يحمل على اللجوء الى التشويه . اما الآن فان هذه النقطة تفقد اهميتها -بالنسبة لنا ، على الاقل ، مرة واحدة والى الابد ؛ وبالاضافة الى هذا ، هناك واقع لا مراء فيه هو انه يمكن ان تكون لسوق النقود ايضاً ازماتها الخاصة التي لا تضطلع فيها المخالفات المباشرة للانتاج الصناعي الا بدور ثانوي تابع او حتى لا تضطلع فيها باي دور . هنا لا بد ايضا من توضيح ودراسة شيء ما ، ولا سيما على الصعيد التاريخي في السنوات العشرين الاخيرة .

وحيث يوجد تقسيم العمل على صعيد المجتمع ، تصبح عمليات العمل المنفردة مستقلة بعضها حيال بعض . ان الانتاج هو العاســــــم في آخر المطاف . ولكن ما ان تنفصل تجـــــارة المنتوجات عن الانتاج بمعنى هذه الكلمة الاصلى ، حتى تسير في حركتها الخاصة التي تهيمن عليها حركة الانتاج كلياً وتماماً ولكن التي تسير مع ذلك ، في بعض اقسامها وداخل هذه التبعية العامة ، حسب قوانينها الخاصة الملازمة لطبيعة هذا الواقــع الجديد . ولهذه الحركة اطوارها الخاصة ، وهي تؤثر بدورها تأثيراً مقابلا في حركة الانتاج . فان اكتشاف اميركا قد تسبب به التعطش الى الذهب ، الذي كان قبل ذاك قد دفع البرتغاليين الى افريقيا دفعاً (قارن زوتبر . «استخراج المعادن الكريمة») ، لأن الصناعة الاوروبية التي تطورت ببالغ القوة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، والتجارة المناسبة لها قد اقتضتا المزيد من وسائل التبادل ، الامر الذي لم تستطع المانيا - بلد الفضة الكبير من عام ١٤٥٠ الى عام ١٥٥٠ - ان تؤمنه . وقد كان

غير مباشرة ، لا كنضال بين الطبقات ، بل كنضال في سبيل المبادى السياسية ، وينعكس بشكل مشوه الى حد انه مرت آلاف السنين قبل ان يتضح لنا كنه المسألة .

ان تأثير السلطة السياسية المقابل في التطور الاقتصادي يمكن ان يكون ثلاثي الوجوه . فقد تفعل في نفس اتجاه التطور فيسير التطور بمزيد من السرعة ؛ او قد تفعل ضد اتجاه التطور الاقتصادي ، فتمنى بالاخفاق في الوقت الحاضر عند كل شعب كبير بعد مرور حقبة معينة من الزمن ؛ او قد تقيم عقبات امام التطور الاقتصادي في اتجاهات معينة وتدفعه في اتجاهات اخرى . وهذه الحالة تؤول في آخر المطاف الى احدى الحالتين السابقتين. ولكنه واضح انه من الممكن ان تتسبب السلطة السياسية في الحالتين الثانية والثالثة للتطور الاقتصادي بافدح الضرر وبتبذير القوى والمواد بمقادير كبيرة جداً .

وعلاوة على ذلك هناك حالة اخرى قوامها كسب مـــوارد اقتصادية والقضاء عليها بفظاظة ، ومن جر"اء هذا كانت جميع نتائج التطور الاقتصادي لمنطقة بكاملها او لامة باسرها تتبدد من قبل في ظروف معينة . اما الآن ، فان لهذه الحالة في معظم الاحيان عواقب معاكسة ، على الاقل عند الشعوب الكبيرة . فان المغلوب على امره يكسب بالنتيجة احياناً ، سواء في الميدان الاقتصادي او السياسي او المعنوي ، اكثر مما يكسب الغالب .

كذلك بالضبط هو حال الحق . فما ان يغدو من الضروري اجراء تقسيم جديد للعمل يخلق الحقوقيين المحترفين ، حتى يتكشف ميدان مستقل جديد يملك ، رغم كل تبعيته العامة ازاء الانتاج والتجارة ، قدرة خاصة على احداث تأثير مقابل في هذين الميدانين . ففي الدولة الحديثة ، ينبغي للحق ، لا ان يطابق الوضع الاقتصادي العام وحسب ، لا ان يكون تعبيراً عنه وحسب ، بل ان يكون ايضاً تعبيراً منسقا داخليا لا يدحض نفسه بنفسه بعكم التناقضات الداخلية . ولأجل بلوغ هذا الغرض ، تُنتهك اكثر فاكثر دقة انعكاس العلاقات الاقتصادية . وهذا ما

الحصر من جر"اء المزاحمة التي لا تستهدف في معظم الاحوال غير تسهيل عمليات البورصة على تجار النقود الذين يملكون الاسهم. في هذه الملاحظات القليلة عن فهمى للعلاقة بين الانتاج وتجارة البضائع وللعلاقة بينهما وبين تجارة النقود ، اجبت ، اساساً ، عن اسئلتك حول المادية التاريخية عموماً . وهذا ما يمكن فهمه على ايسر نحو من وجهة نظر تقسيم العمل . فان المجتمع يخلق وظائف عامة معينة لا يمكنه الاستغناء عنها . والناس المعدون لهذا الغرض يشكلون فرعاً جديداً من فروع تقسيم العمل داخل المجتمع ، وتظهر عندهم بالتالي مصالح خاصة ايضاً حيال الذين عهدوا اليهم بهذه الوظائف ؛ ويصبحون مستقلين حيالهم ، - فتظهر الدولة . ثم يحدث ما حدث في ظل تجارة البضائع وفيما بعد في ظل تجارة النقود . صحيح انه يجب على القوة المستقلة الجديدة ان تتبع كلياً وتماماً حركة الانتاج ، ولكنها تؤثر بدورها تأثيراً مقابلا في ظروف ومجرى الانتاج بحكم الاستقلال النسبي الملازم لها او ، بالاصح ، الذي نالته ذات مرة وتطور تدريجياً اكثر فاكثر . وهذا انها هو تفاعــــل قوتيــــن مختلفتين : من جهة الحركة الاقتصادية ، ومن جهة اخرى القوة السياسية الجديدة التي تسعى وراء اكثر ما يمكن من الاستقلال ، والتي ، بحكم وضعها موضع التطبيق ، تكتسب كذلك حركـة خاصة بها . ان الحركة الاقتصادية ستشيق على العموم طريقاً لنفسها ، ولكنها ستشمعر ايضاً بتأثير مقابل من الحركة السياسية التي انشأتها الحركة الاقتصادية نفسها والتي تكسب استقلالا نسبياً . ففي الحركة الاقتصادية ، تؤثر من جهة حركة سلطة الدولة ، ومن جهة اخرى ، حركة معارضة ولدت في آن واحد مع سلطة الدولة . وكما تنعكس حركة السوق الصناعية عموماً واجمالا ، ومـــع التحفظات المذكورة اعلاه ، على سوق النقود ، وتنعكس طبعاً بشكل مشوه ، كذلك ينعكس النضال بين الطبقات الموجودة والمتناضلة حتى ذاك على النضال بين الحكومة والمعارضة ، وينعكس كذلك بشكل مشوه : لا مباشرة بل بصورة

تتكاثر حالات وقوعه بقدر ما تندر الحالات التي تمثل فيها مجموعة القوانين تعبيراً حاداً ، غير ملكطّف ، غير مشوَّه ، عن سيادة طبقة واحدة ، اذ ان من شأن هذا ان يناقض «مفهوم الحق» . ان المفهوم الخالص ، المنسجم عن الحق عند البرجوازية الثورية في ه, حلة ١٧٩٢ - ١٧٩٦ قد ورد مزيفاً في كثير من النواحي في مجموعة قوانين نابليون ؛ وبالقدر الذي يتجسد به هذا المفهوم عن الحق في مجموعة القوانين هذه ، لا بد" له ان يتعرض بالقدر نفسه كل يوم لشت عمليات التلطيف بفضل تنامى قرة البروليتاريا . ولكن هذا لا يمنع من أن تكون مجموعة قوانين نابليون مجموع ـــة قوانين تقوم في اساس جميع التشريعات الجديدة في جميع انحاء الكرة الارضية . وعليه يتلخص سير «تطور الحق» في معظم الاحوال في انهم يحاولون بادئ ذي بدء ازالة التناقضات الناجمة عن ترجمة العلاقات الاقتصادية مباشرة الى مبادى معادي حقوقية ، واقرار نظام حقوقي متناسق ، ولكن تأثير التطور الاقتصادي اللاحق وقوته الالزامية يعطمان دائماً هـــذا النظام من جديد ويجرانه الى لجة تناقضات جديدة . (واتا هنا اقصر كلامي الآن على المدنى .)

ان انعكاس العلاقات الاقتصادية في صورة مبادى حقوقية يضع هذه العلاقات رأساً على عقب بحكم الضرورة ذاتها . فان عملية الانعكاس هذه تجري بمعزل عن ادراك العنصر الفاعل ؛ فالحقوقي يتصور انه يعمل بموضوعات بديهية ، بينا هي لا تعدو ان تكون انعكاساً للعلاقات الاقتصادية . وهكذا يقف كل شمىء راساً على عقب . اما ان هذا التشويه الذي يمثل ، طالما لـم نكشفه ، ما نسميه بالعقيدة الايديولوجية ، يؤثر بدوره تأثيرا مقابلا في البناء التحتى الاقتصادي ويمكنه ضمن حدود معينة ان يعدله ، - فان هذا يبدو لي من باب تحصيل الحاصل . ان اساس حق الوراثة اقتصادى ، اذا افترضنا درجة واحدة لتطور العائلة . ورغم هذا ، سيكون من العسير جدا تقديم البرهان على ان حرية الايصاء المطلقة في انجلترا ، مثلاً ، والتضييق

الشديد عليه في فرنسا لا يفسرهما بكل تفاصيلهما غير الاسباب الاقتصادية . ولكن هذا وتلك يؤثران تأثيراً مقابلا ملحوظاً جداً في الاقتصاد لأنهما يؤثران في قسمة الاموال .

اما الميادين الايديولوجية التي تحلق على مستوى اعلى في عالم الخيال ، – اي الدين والفلسفة ، والغ . ، – فان لهــا مضموناً من قبل التاريخ ، وجدته واقتبسته المرحلة التاريخية ، مضموناً قد نسميه الآن سنخافة . فان هذه التصورات الخاطئة المختلفة عن الطبيعة وعن جوهر الانسان نفسه ، وعن الارواح ، وعن القوى السحرية ، والخ . ، تقوم بمعظمها على اساس اقتصادي ، ولكن بالمعنى السلبي فقط ؛ وللتطور الاقتصادي المنخفض في مرحلة ما قبل التاريخ تصورات خاطئة عن الطبيعة ، بوصفها اضافات ، واحيانًا بوصفها شرطاً وحتى بوصفها سبباً . ومع ان الضرورة الاقتصادية كانت واصبحت اكثر فاكثر مع مر الزمن النابض الرئيسي للتقدم في معرفة الطبيعة ، الا انه من باب الادعاء الفارغ ان يحاول احد من الناس ايجاد اسباب اقتصادية لجميع هذه السخافات البدائية . ان تاريخ العلوم هو تاريخ القضاء تدريجياً على هذه السخافة او الاستعاضة عنها بسخافة جديدة ، ولكنها مع ذلك اقل سخفاً ، واولئك الذين يقومون بهذا انما ينتسبون الى ميادين خاصة من تقسيم العمل ، ويخيل اليهم انهم يدرسون ميدانا خاصاً . وبما انهم يشكلون جماعة مستقلة داخل التقسيم الاجتماعي للعمل ، فان منتوجاتهم ، بما فيها اخطاؤهم ، تؤثر تأثيرا مقابلاً في كامل التطور الاجتماعي ، وحتى في التطور الاقتصادي . ولكنهم رغم كل هذا يجدون انفسهم مع ذلك تحت التأثير السائد للتطور الاقتصادي ، ففي الفلسفة ، مثلا ، تمكن البرهنة على ذلك بأسهل وجه فيما يخص العهد البرجوازي . فقد كان هوبس اول مادي حديث (بروح القرن الثامن عشر) ، ولكنه كان يعيش في زمن كانت فيه المُلكية المطلقة في عموم اوروبا تمر بمرحلة ازدهارها ، ودخلت فيه في انجلترا في صراع مع الشعب ، وكان نصير الحكم المطلق. وكان

لوك ، في الدين كما في السياسة ، ابن المساومة الطبقية التي حرت في عام ١٦٨٨ . وكان انصار مذهب التأليه السببي الانجليز واتباعهم الاكثر انسجاماً منهم ، اي الماديون الفرنسيون ، فلاسفة البرجوازية الحقيقيين ، بل ان الفرنسيين كانوا فلاسفة الشورة البرجوازية . وفي الفلسفة الالمانية ، ابتداء من كانط حتى هيغل ، انعكست صورة البرجوازي الصغير الالماني ، تارة بالمعني الايجابي وطوراً بالمعنى السلبي . ولكن الفلسفة بوصفها ميداناً خاصاً من ميادين تقسيم العمل ، تجد في كل عهد تحت تصرفها ، على سبيل المقدمة ، مادة تفكيرية معينة انتقلت اليها من اسلافها ومنها تنطلق . وهذا يفسر واقع ان البلدان المتأخرة اقتصادياً تستطيع مع ذلك ان تضطلع في الفلسفة بالدور الاول : فرنسا في القرن الثامن عشر بالنسبة لانجلترا التي اعتمد الفرنسيون على فلسفتها ، ثم المانيا بالنسبة لفرنسا وانجلترا . ولكن الفلسفة ، مثلها مثل الازدهار العام الذي عرفه الادب في ذلك العصر ، كانت كذلك ، سواء في فرنسا ام في المانيا ، نتيجة للنهـوض الاقتصادي . ان هيمنة التطور الاقتصادي في هذه الميادين ايضاً ثابتة لا مراء فيها بنظرى ، ولكنها تقوم ضمن ظـروف يمليها الميدان المعنى بالذات : ففي الفلسفة مثلا ، يمليها فعل المؤثرات الاقتصادية (التي لا تمارس فعلها مع ذلك في معظم الاحوال الا في تعبيرها السياسي وخلافه من تعابيرها) في المادة الفلسفية المتوفرة التي قدمها الاسلاف. وهنا لا يصنع الاقتصاد اي شيء من جديد ولكنه يحدد نوع التغير في المادة التفكيرية المتوفرة ويحدد تطورها اللاحق ، بل انه يفعل ذلك في معظــم الاحيان بصورة غير مباشرة ، بينا التأثير المباشر الاهم تمارسه

وعن الدين قلت الضروري الضروري في الفصل الاخير من كراسى عن فورباخ \* .

على الفلسفة الانعكاسات السياسية والحقوقية والاخلاقية .

ولذا ، اذا كان بارت يعتقد اننا انكرنا كل تأثير مقابــــل

\* راجع هذا المجلد ، ص ٥٧ - ٦١ . الناشر .

للانعكاسات السياسية وغيرها من انعكاسات الحركة الاقتصادية على هذه الحركة بالذات ، فانه بكل بساطة يقاتل طواحين هواء . حسبه ان يلقى نظ\_رة الى كتاب ماركس «الثامن عشر مين برومير» \* حيث يدور الكلام كلياً تقريباً حــول الدور العاص الذي يضطلع به النضال السياسي وتضطلع به الاحداث ، طبعاً ، في نطاق تبعيتها العامة للظروف الاقتصادية ؛ او ان يراجع ، مثلا ، في «رأس المال» القسم المتعلق بيوم العمل ، والـذي يبين اي تأثير حاسم يمارسه التشريع الذي هو عمل سياسي ، او القسم المكرس لتاريخ البرجوازية (الفصل الرابع والعشرون). ولماذا نناضل في سبيل الديكتاتورية السياسية للبروليتاريا اذا كانت السلطة السياسية عاجزة اقتصادياً ؟ ان العنف (اي سلطة الدولة) ، انما هو ايضاً قوة اقتصادية!

ولكن الوقت لا يسمح لي الآن بانتقاد الكتاب نفسه . اولا ينبغي ان يصدر المجلد الثالث \* \* ثم اعتبر عموماً ان برنشتين مثلا يستطيع ان يفعل هذا بصورة ممتازة .

لا شيء ينقص جميع هؤلاء السادة كما ينقصهم الديالكتيك . فهم دائمًا يرون هنا السبب فقط وهناك النتيجة . انهم لا يرون ان هذا تجريد فارغ وان هذه المتناقضات الميتافيزيائيــة لا توجد في العالم الفعلي الافي زمن الازمات وان السير العظيم للتطور يجري كله بشكل تفاعل (رغم ان القوى المتفاعلة على درجة كبيرة من التفاوت ؛ والحركة الاقتصادية بينها هي الاقوى ، الاولية ، العاسمة) ، وانه لا وجود هنا لأي شيء مطلق ، وان كل شيى، نسبى . وبنظرهم ، لم يكن هيغل موجودة . . .

تصدر حسب المخطوطة . صدرت للمرة الاولى بنصها الكامل في محلية «Sozialistische Monatshefte» كتبت باللغة الإلمانية العدد ٢٠\_١١ ، عام ١٩٢٠

<sup>\*</sup> راجع الطبعة الحالية ، الجـــــزء الاول ، ص ١٣٨\_٢٦٨ .

<sup>\* \*</sup> \_ من ورأس المال ، . التاشر .

# من انجلس الى فرانتس مهرينغ

#### في برلين

لندن ، ١٤ تموز (يوليو) ١٨٩٣

عزيزي السيد مهرينغ!

اليوم فقط استطيع اخيراً ان اشكرك على تلطفك وارسالك لي «اسطورة ليسينغ» . واني اود ان لا اكتفي بمجرد بعث تأكيد صريح لك باستلامي الكتاب ، بل ان اقول لك ايضيا شيئاً ما عنه بالذات ، عن مضمونه . وهذا سبب تأخري في الجواب .

ابدأ من النهاية ، من الملحق «في المادية التاريخية» (٧٧) الذي عرضت فيه كنه المسألة عرضاً ممتازاً ، ومقنعاً لكل امرى الا رأي مسبقاً له . واذا كانت تظهر عندي بعض الاعتراضات ، فليس ذلك الا على انك تنسب الي من الافضال اكثر مما ينبغي ، حتى وان اعتبرنا كل ما يبلغ اليه تفكيري ، اغلب الظن ، – مع مر الزمن – بصورة مستقلة ، وما اكتشفه ماركس قبلي بزمن طويل ، وهو الذي يتحلى بنظر ابعد وافق اوسع ، ان من حالفه الحظ وعمل في سياق ٤٠ سنة مع رجل مثل ماركس ، لا يتمتع عادة في حياته بذلك التقدير الذي يمكنه ، على ما يبدو ، ان يأمل به . ولكن عندما يموت الرجل العظيم ، يحدث بكل سهولة يأمل به . ولكن عندما يموت الرجل العظيم ، يحدث بكل سهولة ان يشرعوا في تقدير رفيقه الاقل شأناً منه باكثر مما يستحق ، وهذا ما يحدث لي الآن ، على ما يظهر ، بيد ان التاريخ يضع

كل شيء في مكانه في آخر المطاف ، ولكن حتى ذاك ، سأمضي مع السلامة الى العالم الآخر ، ولن اعرف شيئاً عن اي شيء . وعدا ذلك ، وقع تقصير في عنصر آخر فقط ، لم يتناوله التأكيد الكافي ، على العموم ، والحق يقال ، لا في اعمال ماركس ولا في اعمالي ، والذنب في هذا المجال نتشاطره جميعنا بالقدر نفسه . واعني به اننا ركزنا بصورة رئيسية ، وكان ينبغي علينا ال نركز ، بادئ ذي بدء ، على استخلاص التصورات السياسية والحقوقية وغيرها من التصورات الايديولوجية ، والانعال التي تشترطها ، من الوقائع الاقتصادية التي تقوم في اساسها . وبسبب المضمون ، اهملنا آنذاك مسألة الشكل : اي سبل يتبعها تشكل هذه التصورات ، وما الى ذلك . وهذا ما اعطى خصومنا الحجة المنشودة من اجل الاشاعات الكاذبة ، وكذلك من اجل تشويه يقدم باول بارت المثال الساطع عليه .

ان الايديولوجية انها هي عملية يقوم بها من يسمى بالمفكر ، وان عن ادراك ، ولكن عن ادراك خاطئ . فان القوى المحركة الحقيقية التي تحمله على النشاط تظل مجهولة بالنسبة اليه ، والا لما كانت العملية عملية ايديولوجية . ولذا يصنع لنفسه تصورات عن قوى حافزة كاذبة او ظاهرية . وبما ان الكلام يتناول عملية التفكير ، فانه يستخلص المضمون وشكله على السواء من التفكير الصرف ، - إما مسن تفكيره بالذات ، واما من تفكير اسلافه . وهو يعنى بوجه الحصر بمادة تفكيرية ؛ وهو يعتقد صراحة ان هذه المادة وليدة التفكيل ، وهو على العموم لا ينصرف الى دراسة اي مصدر آخر ، اكثر بعداً ومستقل عن التفكير . فان هذا الموقف من المسألة يبدو له بديهياً لأن عمل يبدو له هر تكزاً في آخر المطاف على التفكير ، اذ انسه يتحقق بواسطة التفكير .

ان الايديولوجي التاريخي (والتاريخي هنا يعني مجرد تعبير جامع يشمل المفه—وم السياسي والحقوقي والفلسفي واللاهوتي – وبكلمة ، جميع الميادين المتعلقة بالمجتمع لا

بالطبيعة) يجد تحت تصرفه في كل ميدان من ميادين العلوم مادة معينة تشكلت بصورة مستقلة مسن تفكير الاجيال السابقة واتبعت سبيلا مستقلا ، خاصا بها مسن التطور في ادمغة هذه الاجيال المتعاقبة واحدا تلو آخر . يقينا انه من الممكن ان تؤثر ايضا في هذا التطور ، كاسباب مرافقة ، وقانع خارجية تتعلق بهذا او ذاك من الميادين ، ولكن هدف الوقائع ، كما يفترض ضمنا ، هي مع ذلك مجرد ثمرات عملية التفكير ، وعليه لا نزال دائما في مضمار الفكر الغالص الذي يبدو كأنه هضم بسلامة حتى اشد الوقائع عنادا .

ان ظاهرية التاريخ المستقل لاشكال البنيان السياسي والنظم الحقوقية والتصورات الايديولوجية في اي ميدان كان ، هي التي تعمى ، قبل غيرها ، اغلبية الناس ، فاذا كان لوثر وكالفين «يتغلبان» على الدين الكاثوليكي الرسمي ، واذا كان هیغل «یتغلب» علی کانط وفیخته ، واذا کان روسو «یتغلب» بصورة غير مباشرة ، فإن هذه عمليه تبقى داخل اللاهوت والفلسفة وعلم الدولة ، وهي تمثــــــل مرحلة في تطور ميادين التفكير هذه ولا تتخطى اطلاقاً حدود التفكير . ومنهذ ان ظهر ، علاوة على هذا ، الوهم البرجوازي حول خلود الانتاج الرأسمالي وكماله الوطلـــق ، منذ ذلـــك الحين ، يعتبـــر «تغلب» انتصاراً خالصاً للفكر ، لا انعكاساً في ميدان التفكير للوقائـع الاقتصادية المتغيرة ، يعتبر انه الفهم الحقيقي ، الذي تم بلوغه في آخر الامر ، للظروف الفعلية القائمة في كل مكان دون اي تغير . ينجم مما سبق انه لو ان ريتشارد قلب الاسد وفيليب -اوغست طبقا حرية التجارة بدلا من ان ينجـــرا الى الحروب الصليبية (٨٠) ، لامكن تجنب ٥٠٠ سنة من الفقر والجهل .

واني اعتقد اننا جميعنا اولينا هذا الجانب من القضية الذي لم استطع ان المسه هنا الا لمساً ، قدراً من الاهتمام اقل مما

يستعق . وهذه حكاية قديمة : دائماً في البدء لا يهتمون بالشكل بسبب المضمون . واكرر اني اقترفت هــــذا الخطأ بنفسي ، وكان هذا الخطأ يفقا عيني دائماً «post festum» \* . ولهذا لست بعيداً وحسب عن توجيه اللوم اليك بالارتباط مع هذا – فليس في اي حق في هذا لاني اذنبت قبلك في الامر نفسه ، بل بالعكس ، – ولكني وددت مع ذلك لو الفت انتباهك الى هـذه النقطة من اجل المستقبل .

وبالارتباط مع هذا ، يوجد ايضاً تصور سخيف عند الايديو لوجيين : فنحن لا نقر بالتطور التاريخي المستقل لمختلف الميادين الايديولوجية التي تضطلع بدور في التاريخ ، فننكر بالتالي كل امكانية لتأثيرها في التاريخ . وفي اساس هذا ، يقوم تصور سطحي ، غير ديالكتيكي ، عن السبب والنتيجة يعتبرهما قطبين متضادين احدهما للآخر ابدأ ودائماً ، ويغيب عن البال كلياً التفاعل بينهما . ان هؤلاء السادة ينسون في كثير مـــن الاحيان ، قصداً وعمداً تقريباً ، ان الظاهرة التاريخية ، التي تولدما بالاحرى اسباب من طراز آخر هي في آخر المطاف اسباب اقتصادية ، تصبح على الفور بدورها عاملا فعالا ، ويمكنها ان تؤثر بالمقابل في البيئة المحيطة وحتى في الاسمباب التي ولدتها . ص ٤٧٥ . فقد اعجبني جداً كيف صفيت حساب هذا الكائن السافل الى درجية لا تصدق . وهذا الكائين يعينونه استاذ التاريخ في ليبزيغ ! مع انه كان هناك العجوز فاكسموت ، وهو ، والحق يقال ، رجل ضيق الافق مثل بارت ، ولكنه رجل من طراز آخر تماماً ، ويمتلك ناصية الوقائع بصورة ممتازة !

اما فيما يخص الكتاب ، ففي وسعي على العموم ان اكرر فقط ما سبق ان قلته غير مرة بصدد المقالات التي ظهرت في «Neue Zeit» ! فهو افضل عرض بين العروض المتوفرة على

<sup>\*</sup> \_ حرفيا : بعد العيد ، اي بعد فوات الاوان . الثاشر .

ولادة الدولة البروسية ، بـل ان في وسعى ، اغلب الظن ، ان اقول انه العرض الجيد الوحيد الذي يكشف بصورة صحيحة ، في معظم الاحوال ، جميع الصلات المتبادلة ، بما فيها تفاصيلها الصغيرة . الا انه يمكن الاسف لأنك لـــم تستطع ان تدرس كذلك كل التطور اللاحق حتى بيسمارك : وبصورة عفوية ، يولد الأمل بانك ستفعل هذا في المرة القادمة وتعطى لوحة عامة في عرض مترابط ، ابتداء من الكورفورست (الامير) فريدريك غليوم وانتهاء بغليوم العجوز \* . ذلك انك قمت بالعمل مسبقاً ، بل انه يمكن القول انك قمت به نهائياً ، على الاقل في المسائل الاساسية . والحال كان ينبغى القيام بذلك قبل ان ينهار كل هذا الصرح المتداعي . صحيح ان تدمير الاساطير الملكيــة الوطنية ليس مقدمة ضرورية بالقدر المظنون لأجل القضاء على المَلككية التي تستر السيادة الطبقية (لأن الجمهورية الغالصة ، البرجوازية في المانيا صارت مرحلة من الماضي قبل ان تنشأ) ، ولكنه يشكل مع ذلك واحداً من اكثـر الروافع فعالية لأجل هذا القضاء .

وآنذاك سيتوفر لك مزيد من المجال والامكانيات لأجلل تصوير تاريخ بروسيا وحدها بوصفها جزءاً من العاهة الالمانية العامة . وهذا ما يشكل تلك النقطة التي اختلف معك في شيء ما بصددها ، واعني بها فهمك لمقدمات تجزؤ المانيا ولفشل الثورة البرجوازية الالمانية في القرن السادس عشر ، واذا تسنى لي وعدلت المقدمة التاريخية لكتابي «حرب الفلاحين» ، الامر الذي سيحدث ، كما اظن ، في الشتاء القادم ، فاني سأستطيع ان اطور فيها المسائل المتعلقة بهذا الموضوع . وليس ذلك لأني اعتبر المقدمات التي اوردتها غير صحيحة ، بل لاني سأقدم الى جانبها مقدمات اخرى واصنفها بنحو مختلف نوعاً ما .

عند دراسة التاريخ الالماني الذي هو عبارة عـــن حقارة وحسب ، اقتنعت دائما بان المقارنة مـــع العهود المقابلة من تاريخ فرنسا هي وحدها التي تعطي البعد الصحيح ، لأنه حدث في فرنسا تمامًا عكس ما حدث عندنا . فهناك – تشكل الدولـــة القومية من disjectis membris \* الدولة الاقطاعية ؛ وعندنا ، في الوقت نفسه - الهبوط الاعمـق. هناك - منطق موضوعي بديع في كل سير التطور ؛ وعندنا - بلبلة رهيبة ، مشتدة اكثر فاكثر . هناك – في مرحلـــة القرون الوسطى ، كان الفاتـــج الانجليزي الذي يتدخل في مصلحة قوم اقليم بروفانس ضد قوم فرنسا الشمالية ، ممثلا للتدخـــل الاجنبي . والحروب ضـــد الانجليز هي نوع من حرب الثلاثين سنة (٨١) التي تنتهي هناك مع ذلك بطرد الاجانب المتدخلين وبخضوع الجنوب للشمال. ثم يعقب نضال السلطة المركزية ضد التابع البورغوندي \* \* الذي يعتمد على ممتلكاته في الخـــارج والذي يـــوازي دوره دور براندنبورغ - بروسيا ، ولكين هذا النضال ينتهي بانتصار السلطة المركزية وينجز تشكيل الدولة القومية . اما عندنا ، فان الدولة القومية تنهار نهائياً في هـذا الوقت بالذات (هذا اذا كان من الممكن تسمية «المملكة الالمانية» ضمن حدود الامبراطورية الرومانية المقدسة (٨٢) بالدولة القومية) ويبدأ ، على نطاق كبير ، سلب الاراضي الالمانية . وهذه مقارنة مخجلة للغاية بالنسبة للالمان ، ولكنها لهذا السبب على وجه الضبط ذات دلالة خاصة ؛ ومنذ ان قدم عمالنا المانيا مــن جديد الى الصفوف الاولى من حركة التاريخ ، اصبح من الاسهل علينا بعض الشيء احتمال خزي الماضي .

ان السمة المميزة الخاصـة تماماً التي يتميز بها التطور الالماني تقوم ايضاً في ان القسمين اللذين يشكلان الامبراطورية

اقسام مبعثرة . الناشر .

<sup>\* \*</sup> \_ كارل الجرىء . الناشر .

غليوم الاول . الناشر .

# من انجلس الى ف. بورغيوس (٨٣)

في بريسلافل "

لندن ، ۲۵ كانون الثاني (يتاير) ۱۸۹٤

سيدي الكريم!

اجيب عن اسئلتك :

١ - اننا نفهم بالعلاقات الاقتصادية التي نعتبرها البناء التحتي المحدد لتاريخ المجتمع ، الاسلوب الذي ينته به الناس في مجتمع معين وسائل العيش ويتبادلون به المنتوجات (ما دام يوجد تقسيم العمل) . وعليه ، يدخل هنا كل تكنيك الانتاج والنقل ، ووفقا لنظراتنا ، يحدد هذا التكنيك اسلوب التبادل ايضا ، ثم اسلوب توزيع المنتوجات ، وبالتالي ، بعد تفسخ النظام العثمائري ، الانقسام الى طبقات ، وعلاقهات السيادة والخضوع ، والدولة ، والسياسة ، والحق ، والخ . . ثم ان مفهوم العلاقات الاقتصادية يشمل ايضاً الاساس الجغرافي الذي تتطور عليه هذه العلاقات ، وبقايها درجات التطور الاقتصادي السابقة ، البقايا التي انتقلت عملياً من الماضي والتي لا تزال قائمة ، احياناً كثرة بفضل التقاليد فقط او بفضل والتي لا تزال قائمة ، احياناً كثرة بفضل التقاليد فقط او بفضل والتي لا تزال قائمة ، احياناً كثرة بفضل التقاليد فقط او بفضل والتي لا تزال

واللذين تقاسما بينهما في آخر المطاف المانيا باسرها ، ليسا كلاهما المانيين صافيين ، بـــل كانا مستعمرتين في الارض السلافية المفتوحة : النمسا مستعمرة بافاريــة ، وبراندنبورغ مستعمرة ساكسونية ؛ ولم يظفرا بالسلطة في المانيا بالذات الالأنهما كانا يعتمدان على ممتلكاتهما الاجنبية ، غيــر الالمانية : النمسا – على المجر (فضلا عن بوهيميا) ، براندنبورغ – على بروسيا ، وعلى الحدود الغربية المتعرضة للخطر الاكبر ، لــم بروسيا ، وعلى الحدود الغربية القبيل ؛ وعــلى الحدود الشمالية ، يكن هناك اي شيء من هذا القبيل ؛ وعــلى الحدود الشمالية ، عهدوا الى الدانماركيين ؛ وفي الجنوب كانت الحاجة الى الحماية على درجة من التفاهة بحيث ان الذين كان ينبغي عليهم ان يحموا الحدود – السويسريين – استطاعوا ان ينفصلوا عن المانيا !

مرة اخرى الشكر القلبي والتحية من المخلص لك

ف ، انجلس

تصدر حسب المخطوطة . كتيت باللغة الالمانية صدرت للمرة الاولى مسع اختصارات في كتاب فرانتس مهرينسغ: Geschichte «Geschichte», Bd. der Deutschen Sozialdemokratie», Bd.

وصدرت بنصها الكامل باللغة الروسية في مؤلفات كارل ماركس وفريدريك انجلس ، الطبعة الاولى ، المجلد ٢٩ ، عام ١٩٤٦

اسمها الحالي: فورتسلاف . الناشر .

<sup>\* \*</sup> \_ بقوة الاستمرار . الثاشر .

وكذلك ، طبعاً ، البيئة الخارجية التي تحيط بهذا الشكل من اشكال المجتمع .

واذا كان التكنيك ، كما تؤكد ، يتوقف بقدر ملحوظ على حالة العلم ، فان العلم م يتوقف ، بقدر اكبر بكثير على حالة التكنيك وحاجاته . فاذا ظهرت عند المجتمع حاجة تكنيكية ، فان هذا يدفع العلم الى امام اكثر مما تدفعه عشر جامعات . ان الهيدروستاتيكا كلها \* (توريتشميللي ، وغيره) قد اخرجتها الى النور العاجة الى ضبط السيول الجبلية في ايطاليا في القرنين السادس عشر والسابع عشر . ولم نعرف شيئاً ما معقولا عن الكهرباء الا منذ اكتشاف امكان تطبيقها تكنيكياً . وفي المانيا ، اعتادوا ، مع الاسف ، ان يكتبوا تاريخ العلوم كأنما العلوم هبطت من السماء .

المطاف التطور التاريخي . والعرق نفسه عامل اقتصادي . ولكنه ينبغى هنا ألا يغيب عن البال الامران التاليان :

أ - ان التطور السياسي ، والحقوقي ، والفلسف\_\_\_\_ي ، والديني ، والادبي ، والفني ، والخ . ، يرتكز على التطــــور الاقتصادي . ولكنها جميعها تؤثر كذلك بعضهـــا في بعض وفي البناء التحتي الاقتصادي . ولكنـــه ليس من الصحيح اطلاقاً ان الوضع الاقتصادي وحده دون غيره هو السبب ، وانه هو وحده دون غيره القعال ، بينا الباقي كله لا يعدو ان يكون نتيج\_ة منفعلة . كلا . فهنا يوجد تفاعل على اساس الضرورة الاقتصادية التي تشبق لنفسها دائماً طريقاً في آخر المطاف . فان الدولة ، مثلا ، تمارس تأثيرها بواسطة رسوم الحماية الجمركية ، او بواسطة حرية التجارة ، او بواسطة سياسة ضرائبية صالحة او طالحة . بل ان ما يعانيه البرجوازي الصغير الالماني من ارهاق قاتل وعجز فاضح ، اشترطهما وضع المانيا الاقتصادي الحقير في

علم توازن الموائع وضغطها . المترجم .

الحقبة الممتدة من عام ١٦٤٨ الى عام ١٨٣٠ ، ووجدا تعبيراً عنهما في مذهب التقون (٨٤) اولا ثم في العاطفية وفي التزلف العبودي امام الامراء والنبلاء لم يبق بدون تأثير في الاقتصاد . وكان هذا من اكبر العقبات امام النهوض الجديد ، وهذه العقبة لم تتزعزع الا لأن الحروب الثورية والنابليونية جعلت الفقر المزمن حاداً مدقعاً . وعليه لا يمارس الوضع الاقتصادي تأثيره بصورة اوتوماتيكية ، كما يتصور بعضهم لتسهيل الامر ، بـــل أن الناس هم الذين يصنعون تاريخهم ، ولكن في بيئتهم المعنية ، التي تشترطهم ، وعلى اساس العلاقات الفعلية القائمة التي تؤلف بينها الظروف الاقتصادية – مهما كان تأثير الظروف الاخرى ، السياسيـــة والايديولوجية وغيرها قوياً عليها - العنصر الحاسم مع ذلك في آخر المطاف وتشكيل ذلك الخيط الاحسر الهادي الذي يتخلل التطور كله ويقود وحده الى فهم التطور .

ب - ان الناس هم الذين يصنعون تاريخهم ، ولكنهم صنعوه حتى الآن ، دون ان يسيروا على هدى ارادة مشتركة ، وخطة مشتركة واحدة ، وحتى خارج اطار مجتمع معنى ، محدود بصورة واضحة . ان مطامحهم ومساعيهم تتشابك ، ولهذا تسود في جميع هذه المجتمعات الضرورة التي الصدفة تكملة لها وشكل لتجليها . ان الضرورة التي تشبق لنفسها طريقاً هنا عبر جميع الصدف هي مع ذلك في آخر المطاف اقتصادية . وهنا نجابـــ مسألة من يسمون بالرجال العظام . ان واقع ظهور هذا الرجل العظيم وهذا الرجل العظيم بالذات لا غيره في زمن معين وفي بلد معين هو بالطبع مجرد صدفة . ولكن اذا أ'زيل هذا الرجل ، ظهر طلب باحلال بديل محله ، وهذا البديل يتواجد ، ويكون موفقاً إلى هذا الحد أو ذاك ، ولكنه يتواجد مع مر الزمن. اما أن نا بليون ، هذا الكورسيكي على وجه الضبط ، كان ذلك الديكتاتور العسكري الذي غدا ضروريا للجمهورية الفرنسية التي انهكتها الحرب ، فان هذا كان صدفة . ولكن لو لم يكن نابليون موجوداً ، لقام بدوره رجل آخر . وهذا ما يثبته واقع انه دائماً كان يتواجد مثل هذا الرجل عندما كانت تظهر

الحاجة اليه : قيصر ، اوغسطوس ، كرومويل ، الخ . . واذا كان ماركس هو الذي اكتشف المفهوم المادي للتاريخ ، فان تييري ومينيه وغيزو وجميع المؤرخين الانجليز قبل عام ١٨٥٠ يشكلون برهاناً على ان الامور كانت تسير نحو هذا ، بينا يبين اكتشاف مورغان للمفهوم ذاته أن الزمن قد نضج لهذا الغرض وأنه كان لا بد من تحقيق هذا الاكتشاف .

كذلك بالذات هو حال جميع الصدف الاخرى وجميع الصدف الظاهرية في التاريخ . وبقدر ما يبتعد الميدان الذي ندرسه عن الميدان الاقتصادي ، وبقدر ما يقترب من الميدان الايديولوجي المجرد الصرف ، بقدر ما نجد المزيد من الصدف في تطوره ، ويزداد خطه المنحنى تعرجاً والتواء . واذا رسمت المحور الاوسط للخط المنحني ، وجدت انه بقدر ما تكون المرحلة المدروسة اكثر طولا ، والميدان المدروس اكثر سعة ، بقدر ما يقترب هذا المحور من محور التطور الاقتصادي ويسير بموازاته .

ان ما يلقاء التاريخ الاقتصادي في الادب من اهمال لا غفران له هو في المانيا اكبر عقبة امام الفهم الصحيح . فليس من الصعب جداً وحسب التخلي عن التصورات بصدد التطور التاريخيي المغروسة في المدرسة ، بل انه من الاصعب ايضاً جمــع المادة اللازمة لأجل هذا الغرض . فمن ذا الذي قرأ ، مثلا ، وإن مؤلفات العجوز غ . فون غوليخ الذي جمع في مجموعة جافة من المواد (٨٥) الكثير والكثير من الاشياء القيمة لأجل تفسير كثرة لا عد لها من الوقائع السياسية!

اما على العموم ، فاني اعتقد ان ذلك النموذج البديع الذي اعطاه ماركس في «التامن عشر من برومير» \* لا بد ً له ان يعطيك الجواب الكامل عن اسئلتك لأنه على وجه الضبط مثال عملي . واغلبية الاسئلة ، كما يخيل الي" ، تناولتها في «ضد دوهرينغ» ،

ارجوك الا تنظر بعين التعنت الى كل كلمة في المعروض اعلاه ، والا " تغيب عن بالك ابدا الصلة العامة المشتركة ؛ فمع الاسف ، لم يتوفر لى الوقت لكى اعرض لك كل شبىء بما ينبغى من الوضوح والدقة لو كان هذا معدا للطبع والنشر . . .

> صدرت للمرة الاولى في مجلة «Der Sozialistische Akademiker» العدد • ٢ ، عام ٥ ٩ ٨ ١

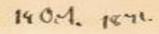
تصدر حسب نص المجلة . كتبت باللغة الالمانية

القسم الاول ، الفصل التاسع والعاشر والحادي عشر ، والقسم الثاني ، الفصل الثاني والثالث والرابع ، والقسم الثالث ، الفصل الاول ، او في المقدمة ، وعدا ذلك ، في الفصل الاخير من «فور باخ» \* .

<sup>\*</sup> راجع هذا المجلد ، ص ٨-٢٢ . الناشر .

<sup>\*</sup> راجع الطبعة الحاليـــة ، الجزء الاول ، ص ١٣٨ - ٢٦٨ . الناشي .

ن ماركس الى بافل فاسيلييفيتش اننكوف ، ٢٨ كانون
لاول [عام ١٩٤٦] 1
س ماركس الى يوسف فيديماير ، آذار ١٨٥٢ . • 16
س ماركس الى لودفيغ كوغلمان . ١٢ نيسان ١٨٧١ 17
من ماركس الى لودفيغ كوغلمان ، ١٧ نيسان ١٨٧١ 19
من ماركس الى فريدريك بولته ، ٢٣ تشرين الثاني ١٨٧١ 20
من انجلس الى اوغست بيبل ، ٢٠ حزيران 24١٨٧٣
من ماركس الى ولهلم بلوس ، ١٠ تشرين الثاني ١٨٧٧ و29
من انجلس الى كارل كاوتسكي، ١٢ ايلول ١٨٨٢ 30
من انجلس الى كونراد شميدت ، ٥ آب ١٨٩٠ . 32٠
من انجلس الى اوتو بونيفك ، ٢١ آب ١٨٩٠ . 35٠
من انجلس الى يوسف بلوخ ، [٢١-٢١] ايلول ١٨٩٠ 37
مـن انجلس الى كونـراد شميدت ، ۲۷ تشريـن
الاول ۱۸۹۰
من انجلس الى فرانتس مهرينـغ ، ١٤ تموز ١٨٩٣ 0
من انجلس الى ف . بورغيوس ، ٢٥ كانون الثاني
7



cuy dear 200.

Enclosed Ma personger for Mes. Beech.

The timber of Maclembrian Greenwood = 5 Frederick.

Ce i's pay Enclose le grade Down source que Vollaire.

Down as retrick suisse, out oupies de lui on jesuite, nomi

Odron, qu'el à lait acounternie à représente à ses missiteurs

endeuel: Ce sient per le premier Des houses?

Trail Me plemme le cale on Mera Bouly

, about « o'close he

More Chark

Madame F. J. Beesling

The asserted

Karl Mark

Laward 1991. 1971

W. WEINDER, THUT



لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية

## محاور العدد الثالث

3	الموضوعة الأولى: في التعريف العام للمادية التاريخية
3	الموضوعة الثانية: ماركس وانجلز والثورة العلمية في مجال التاريخ
8	الموضوعة الثالثة: كيف نشأت المادية التاريخية عند ماركس وانجلز؟
11	الموضوعة الرابعة: في العلاقة بين المادية التاريخية والمادية الديالكتيكية
15	الموضوعة الخامسة: نمط الإنتاج كقوة محددة للتطور الاجتماعي
24	الموضوعة السادسة: الأشكال المختلفة للوعي الاجتماعي
46	الموضوعة السابعة: نظرية الثورة الاجتماعية والسيرورة التاريخية الثورية
61	رسائل ماركس ـ إنجلز حول المادية التاريخية